دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١

بلادي الجديدة

مقالات

أحمد عيسى

بلادي الجديدة

بلادي الجديدة

مقالات

أحمد عيسى

العنوان :بلادي الجديدة

النوع الأدبي :مقالات أدبية واجتماعية

المؤلف :أحمد محمد عيسى عبدالرحمٰن

قوة السرد :كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي :الكاتب بنفسه

اللغة :فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني :رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف :رمضان سلمي برقي

سنة النشر:2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء..

إلى مصرنا، ووطننا العربي الحبيب، إلى الإنسان المقهور في كل مكان ..لن تدوم الكبْوة، ولن تستمر النَّبْوَة، سُنن الله سارية بين الدولة والدائرة، في انتظار صَوْلة الحق وسلطان العدل، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

أحمد عيسى

المقدمة

هذه مقالات كتبها المؤلف بمِداد من أدبٍ، ونشرها في صفحته بالفيسبوك، تناول فيها تحليل بعض قصائد الشاعر الراحل" أمل دنقل"؛ لصعوبتها وعمقها وقلة من تناولها من الشراح والنقاد، وربما لكثرة تأويلاتها وثراء معانيها التي تذكرنا بما نحياه في ظل" ربيع عربي "لم يحقق – حتى الآن – بعضاً من مراميه، وأهدافه، وغاياته.

ويسجِّل هذا الكتابُ أيضاً مقالاتٍ أخرى حياتية واجتماعية، في عَرْضٍ فني يوازن بين قيم الماضي الجميل وضبابية الحاضر المقيت؛ أملاً أن ينتبه الشباب، وتستيقظ الشعوب، وتُفيق الدول والأمم، وتلتفت الحكومات؛ ليهب الجميع – متعاونين متحابين – لاحترام حَسَن الماضي ونُبْله، واستعادة المفيد منه واستلهامه، وتهميش السيئ من مكتسبات الحاضر وتهوينه، ذلك السراب الذي اخترقنا وغزا عقول وقلوب أُسرنا وأهلينا، وربما طال أثره بعض أقلام أدبائنا وقادتنا ومفكرينا.

قد يرى القارئ لهذا الكتاب عاطفة فكرية تجنح لكل فضيل وجميل، سواء كان في الماضي أو أتى عفو خاطر الحاضر أو رغماً عنه، كما يرجو الكاتب أن يلاحظ القارئ في الكتاب موضوعية الطرح، وأمانة النقل، وجمال التعبير، والحرص على الإصلاح بالفن قدر الطاقة.

ومن الخطأ أن يظن امرؤ أن قِيم الحق والعدل والخير والجمال يمكن أن تحتكرها دولة، أو تمتلكها أمة، أو تستحوذ عليها قوة عظمى، أو تستأسر بها حِقبة من الزمان، هذه قيم إنسانية أرساها الله في جنبات الكون فطرةً فطر الناس عليها، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

أخيراً ..أجدني لستُ مع مَن قال" :والدين بمعزل عن الشعر "أو الفن، ففي تصوري أن الدين يحترم إنسانية الفن، وفي القرآن سورة اسمها" الشعراء"، ينبغي علينا إعادة تلاوتها وفهم آياتها من جديد، فهماً إخَاله سيدعم الفن بأدوات عَفَّة، وموضوعات مهمة حيَّة، وطرائق طاهرة تُعلي راية القيم الإنسانية، وتزكي الفضائل، وتطوِّح بالرذائل، في أعمال فنية غير خطابية ومن دون وعظ أو مباشَرة، ساعتها سيلزم الفن السامي غَرْزَه وسيُفسح الطريق لقدسية الدين ليتعانقا معاً من أجل إنقاذ إنسانية تائهة شاردة!

أحمد عيسى

المقالات الأدبية

1-وقفة مع" ضد من؟ .."لـ أمل دنقل

تؤثر الحالة النفسية عموماً في الإنسان، ويتأثر بالأجواء النفسية الشعراء بصورة خاصة، فما يراه الهزِج الطرِب حُمرة وردٍ، وبياض قرنفل وياسمين، يراه الأسيان النكِد لون دم، ونسيج كَفَن.

وعلى حين يرى السعيد المتفائل الشفق الأحمر صادراً عن وجنات الأزاهير، وزاهي الورود؛ فإن الشفق الأحمر هو بعيني الحزين مرآة للأفول، وإرهاص بالنهاية والغروب.

وحين يدور الحديث عن اللون الأبيض الذي يُذكر بلون الفل والياسمين ورائحة الإقبال والانطلاق والسرور، فلا نرى هذا الانطباع والتأثير لدى مريض طريح الفراش الأبيض، لا سيما حين يكون هذا المريض شاعراً، وتتسع المفارقة والهوة أكثر، ويرهف الإحساس بشكل أوضح حين يكون هذا الشاعر أمل دنقل!

ففي أُخريات العمر، مع مرض خطير جعل شاعرنا طريح الفراش الأبيض، ومع إحساس الشاعر بقرب الموت ودنو الأجل، يخلع الشاعر على كل مفردات المشفى كآبة ويأساً، وذبولاً وتهاوياً، فلا يرى في اللون الأبيض إلا نذير موت، ووشيك نهاية، وقماش كفن.

يرى الشاعر اللون الأبيض يكسو مشفاه وغرفته، فإذا نظر إلى ممرضة أو حكيمة فاجأه نقابها وتاجها الأبيضان.

وإن عرَّج على الأطباء صدمه لون المعاطف الأبيض، حتى أنه ليُذكره بلون الأسمال البيضاء للراهبات المتبتلات في الأديرة والكنائس.

وحين يزورُّ عن عالم الأحياء بنظرة إلى عالم الأشياء بالغرفة؛ فإنه يُلفي الملاءات والأسرَّة وأربطة الشاش والقطن وأقراص الدواء وأنابيب المصل بيضاء اللون، بل حتى اللبن يجده متسربلاً بالنصاعة متشحاً بفاقع البياض.

يقول الشاعر:

في غُرَفِ العمليات،

كان نِقابُ الأطباءِ أبيضَ،

لونُ المعاطفِ أبيض،

تاجُ الحكيماتِ أبيضَ، أرديةُ الراهبات،

الملاءاتُ،

لونُ الأسرّةِ، أربطةُ الشاشِ والقُطْن،

قرصُ المنوِّمِ، أُنبوبةُ المَصْلِ،

كوبُ اللَّبن،

كلُّ هذا يُشيعُ بِقَلْبي الوَهَنْ.

كلُّ هذا البياضِ يُذكرني بالكَفَنْ!

ثم يعقد الشاعر مقارنة بين اللونين :الأبيض والأسود، فيقول :إن كل ما حولي من أحياء وأشياء لونه أبيض، حتى إن مَرَضي لو كان له لون لكان أبيضَ.

ثم يُسائل الشاعر نفسه :لماذا يُصرُّ المشيعون والمعزون على ارتداء السواد في حالات الموت وعند غشيان الوفايات؟

هل يخشى المعزون والمشيعون على أنفسهم عدوى الموت، وآفة النهاية، فيلجأون إلى الشارات السوداء تمائمَ عساها أن تدفع أظفار المنية ومخالب الموت عن أرواحهم وأجسادهم.

يقول أمل:

فلماذا إذا متُّ ..يأتي المعزونَ مُتَّشِحينَ..

بشاراتِ لونِ الحِدادْ؟

هل لأنَّ السوادْ..

هو لونُ النجاة من الموتِ،

لونُ التميمةِ ضدّ ..الزمنْ،

***

ثم يتساءل الشاعر في حيرة استبدت به وضاعفت من آلامه :لمن يتوجه بصرخاته، ويجأر بأناته، ويبث حسراته؟

هل يسجل هذه النداءات للأطباء وقد عجزوا عن مداواته بعد بذل جهدهم وأقصى وسعهم، أم يبوح باعتراضاته متهماً بها اللونين الأبيض والأسود؟

أم تراه يرسل الشكوى الآملة والنحيب الهامس إلى السماء؛ ملتمساً شفاءً من المرض، أو تخفيفاً من العذابات والوهن، أو طامعاً في نهاية عاجلة لأنه لم

يعد يطيق اختلاج قلبه، وخفقان فؤاده، فصدره قد زايلته السكينة، وفارقته الطمأنينة، وتملَّكه ضاري الشجن.

يقول دنقل:

ضِدُّ منْ ..؟

ومتى القلبُ – في الخَفَقَانِ – اطْمأَنْ؟!

***

إن الشاعر وهو يصارع الموت، ويقاوم المرض، يتوافد عليه الأصدقاء والأصحاب والزملاء، بملابس وأسمال من لونين، لا ثالث لهما، الأبيض المتسق مع منظومة المشفى وإيقاع المرض، أو الأسود الموحي بحزن الزائر، ودنو المنية، واقتراب الأجل، حتى أن الشاعر حين ينظر إلى سريره يجد فيه ضيق القبر، ورائحة الموت، وظلمة الجدَث.

إنه وقد طالت عذاباته بالمرض، يشعر بأن حياته قد صارت دهراً طويلاً، هرم فيها الشاعر وشاخ رغم ربيع عمره، أو أن الشاعر يلمح في عيون العائدين له ضراعة إلى الله ليرحم المريض الشاعر وينقله سريعاً لرحابه، فما جدواها حياة تدوم دهراً من دون صحة وعافية!

لقد آض بصر الشاعر حديداً حتى أنه لا يرى في عيون الزائرين أملاً بشفائه، ولا تفاؤلاً بنجاته وحياته، بل يرى في عيونهم التي يحاولون مداراة الحزن والدمع في مآقيها الخبيئة لون الحقيقة الأسود الذي يحاكي لون تراب الوطن، ولون الأرض، ولون الموت، ولون القبر، ولون بشَرة الشاعر أمل!

يقول أمل دنقل:

بين لونين :أستقبِلُ الأَصدِقاء..

الذينَ يرون سريريَ قبرا

وحياتيَ ..دهرا

وأرى في العيونِ العَميقةِ

لونَ الحقيقةِ

لونَ تُرابِ الوطنْ!

2-مقاربة" حوار على النيل .."لـ أمل دنقل

هذه محاولة للتصدي لمشهد جديد من عالم" أمل دنقل "الشعري، ويبدو أنه على من يجوس تخوم هذا العالم أن يتسلح بالشفافية، ويتزود بعمق الرؤية.

ويصطحب معه مجاديفَ فلسفية؛ ليرى بعيني دنقل، ويسمع بأُذنيه، ويجول في مسارح فكره وعميق ربطه وإسقاطاته ورمزه.

والقصيدة تتمحور حول النيل، فلُحمة الأبيات وسَداها ذلك المصري الحر الأبي المسالم المعطاء أو) النيل (الذي يسخو ويجود.

وهو مع ذلك عند عزيز مصر مجهول الهوية فاقد الثبوت والمصداقية، يسأل عنه الحاكم أو الوالي أو سلطان مصر في إنكار لخيرات النيل) المصري (وآلائه، بل في كفر بوجوده ومحو وطعن لكينونته وشرعيته.

يطالعنا" أمل "على لسان الوالي الذي يجهل قدر المصري أو منزلة النيل فيقول متجاهلاً الشمس في رابعة النهار:

من هذا الذي تحرر من قيود سيطرتي، وتخلص من أغلال قمعي فهام على وجهه في تحرر وانطلاق، وتمرد وإباء، محاولاً التفلت من قهري وسطوتي . ويح هذا) المصري (إنه لا يخشى شيئاً رغم بطشي فينام نومة عُمَرِية تحت ظلال الأشجار المتعانقة الأغصان المتشابكة الأفنان في حنان وحنو، وأمن وأمان، ينام ممتداً لتصل قدماه رافدة القناطر الخيرية.

ويجيب الشاعر عن تساؤلات الوالي المنكرة والمستفزة:

سيدي، إنه نهر النيل الذي وهبنا مصر وأهدانا أم الدنيا، فبلدنا مصر الغالية إحدى هباته وأعطياته، وواحدة من دراته.

إنه النيل العريق الأصيل الذي سبق وجودنا ووجود آبائنا وأجدادنا، ولكم نعمنا صغاراً بمياهه وشطآنه، وأكلنا من جود طميه، وخيرات طينه.

لكنّ الوالي في كبر وتجاهل ولُكْنَة شُرَطية بوليسية يقول :أين كان يعمل؟ .. وبأي مكان يقطن ..ويأوي ويسكن؟

فيجيب الشاعر:

سيدي، حاول أن تتذكره فلطالما احتضنتنا شواطئه مع لفحات الصيف الحارة التي يُحيلها بمياهه وانطلاقه وجريانه وبديع سحره باردة منعشة.

إن النيل ليس بمنكور ولا مجهول يا مولاي، امتدت شهرته وذاعت كرامته فسبقته إلى الإذاعة موسيقى ناعمة مؤثرة، وقصائد راقصة تُغنى، وأناشيد تُشدى وتُغرد، وأصوات تتماوج وتترنم.

يقول أمل مصوراً حواره مع الوالي:

–من ذلك الهائم في البريهْ

ينام تحت الشجر الملتف

والقناطر الخيريهْ

–مولاي .هذا النيل

نيلنا القديم

–أين ترى يعمل أو يقيم

–مولاي .كنا صبية نندس في حياضه الصيفيهْ

فكيف لا تذكره؟

وهو الذي يُذكر في المذياع

والقصائد الشعريهْ

ثم يعود الوالي للغة التحقيق والتعالي، فيسأل الشاعر هل هذا النيل) المواطن المصري (كان زعيماً مطاعاً؟

فيجيب الشاعر:

لم يكن يوماً بوقاً متسلطاً، ولا نجمَ سلطة متوهجاً، إنما كان يعمل بجد وهدوء وعناء، في إخلاص وخضوع وخفاء.

كان يجود بخيراته ليس فقط لأهله وقومه، بل يمتد عطاؤه ويتجاوز إلى الأجانب الغرباء من ربوع البسيطة، وأنحاء المعمورة.

وجميع الغرباء يعرفون قدره ويأتون إليه مذعني الإعجاب، خاضعي الإكبار، تملؤهم رهبة وإجلال، يقبلون عليه آملين أن ينعموا برؤيته، ويتفاخروا بمشاهدته.

وهم في سبيلهم للاقتراب من النيل يتوافدون مع بواكير فصل الشتاء بملابسهم الصيفية وبعضهم يسرع إليه بلبسة المتفضل قبل ولوج البرد واشتداده.

فيقول الوالي في اتهام وقلب للحقائق:

إن الأجانب من السائحين يتلمحون فيه حزن الأسير، ويدهشون من تواضعه المكتسي بكوفية محلية الصنع يُخفي بها آلامه وشجونه، وعذاباته وتباريحه وهمومه.

إنهم يرونه يفخر بكوفيته القطنية البيضاء كالنهار؛ لأن قطنها ارتوى من مياهه وغُذي من طميه وطينه.

وقد بيّت الغرباء التقاط أساه وشكواه، واعتزموا تسجيل محنته وتصوير حزنه وبلواه، وأخشى من إرهاصات ثورة تبدو ناعمة.

إنهم دسيسة لتظاهر، ومخابرة وتآمر، لا بد إذن من حبس النيل واعتقاله، والتشكيك في نسبه وأصوله، وأتباعه وأصهاره.

والطعن في منبعه ومصبه وانحداره، فمكان الفتنة أن تودع الملاجئ مع المجهولين الأدعياء واللقطاء، أو تُوارى غياهب سجون حجز وحبس وعناء.

يقول دنقل:

هل كان قائدا؟

مولاي .ليس قائدا

لكنما السياح في مطالع الشتاء

بالأقمصة القصيرة الأكمامْ

يأتون كي يروه

آه

يصورونه بوجهه الباكي

وكوفيته القطنيهْ

لكي يشهروا بنا

بالنظم الثوريةْ

تعالَ كي نودعه

في ملجأ الأيتام

وعبثاً يحاول الشاعر صد الوالي عن قراره، أو ثنيه عن اعتزامه اعتقال غريمه.

فيقول متحنناً متوسلاً ضارعاً:

لا تنسَ أن النيل معشوق البنات والفتيات والرعاء، ومحبوب الماشية والماعز والشياه، إنه داعب شياطين الشعراء فأوحوا وأبدعوا.

ولامس قلوب المطربين فعزفوا وغنوا وأنشدوا، لقد خصته كوكب الشرق بأنشودة ضمن حفلاتها الشهرية وتغريداتها العذبة الندية.

يقول أمل دنقل :

مولاي .هكذا تحبه الصبايا والرعاة والأغنام

وأم كلثوم التي كانت تغني له

في وصلتها الشهريةْ

فيتعجب الوالي مبدياً استغرابه من الشاعر المتواطئ مع النيل المتمرد ذي التاريخ الأسود المعصوب بدماء المصريات، فيقول للشاعر:

هل تتحدث بهذا اللطف وذاك الود عن النيل السفاح القاتل الذي يبث الموت، ويمتص الدماء، ويعتصر في أحضانه العذارى الأبكار إلى أن يتركهن جثثاً هامدة في قاع مائه، وسمرة طينه.

فيقول الشاعر ذابّاً عن النيل :كانت تلك عادة قديمة قد برئت منها يداه، وخلت منذ زمن بعيد وهو منها براء.

إنه قد كبر الآن فلا طاقة له على ضم وعصر، وقتل وموت، ولا قدرة له على جنوح لتفكير وتدبير، أو قتل وتدمير، وليس بمكنته هرب من قيد وأسر، أو تمرد على بطش وقهر.

يقول الشاعر:

–النيل؟

أين يا ترى

سمعت عنه قبل هذا اليوم؟

أليس ذلك الذي

كان يصاحب العذارى

ويحب الدمْ؟

–مولاي .قد تساقطت أسنانه في الفمْ

ولم يعد يقوى على الحب وألعاب الفروسيةْ

ثم يقول السلطان الوالي :لا علاقة لي بما تقول، النيل أضحى غريباً لا بد له من ميلاد جديد تعززه أوراق وشهادات ثبوت، وصمته هذا يدينه ولا يُنجيه، فهو محبوب معشوق من العامة الغوغاء، والجمهور العريض.

إنه يتدفق متخللاً بين النجوع، يغشى الأزقة والربوع، وهو لا يزال يحمل النسيم الذي تهتز لإيقاعه مراكب العشاق، وزوارق المتنزهين وقت الأصيل وخلال ليالي الصيف وبواكير أيام الشتاء.

يقول أمل دنقل:

–لا شأن لي

لابد أن يبرز لي أوراقه الرسميةْ

فهو صموت

يصادق الرعاع .يعبر القرى

ويدخل البيوتْ

ويحمل العشاق في الزوارق الليليةْ

ثم يُملي الوالي قراراته النهائية على الشاعر ، ضارباً باستعطافه عُرض الحائط، فهو لا يرى النيل إلا أحد المتمردين الأحرار، بل هو بمقلتيه متشرد من الشرذمة المأفونين المثبورين.

ولابد من التخلص منه بالحبس والقيد، أو العذاب والموت؛ وذلك حين يفشل في إثبات هويته ووطنيتهومصريته.

ثم قال الوالي :إني لأخشى أن يكون جاسوساً يريد إثارة البلاد وتأليب العباد أو أن يظهر في الأرض الفساد، ولا حق له في تدفق وحركة وسعي قبل وضوح الطوية وإثبات الهوية.

فإما أن يثبت حسن عقيدة وسلوك وصفاء نية، وإما أن يحال بينه وبين تنسم عبير الحرية!

يقول دنقل:

–مولاي هذا النيل

–لا شأن لي

بذلك المشرد المجنون

لابد أن يريني أوراقه الرسميةْ

شهادة الميلاد

والتطعيم، والتأهيل

والموطن الأصلي والجنسيةْ

لكي ينال الحق

في الحريةْ.

3-حول" زهور "أمل دنقل

يبدو أن قصيدة" زهور "من أواخر ما أبدع الشاعر أمل دنقل، نلمح ذلك من إشارات في القصيدة تشي بأن" أمل "كان نزيل مشفى وطريح فراش؛ لذلك انهالت عليه طاقات من الورود والأزاهير، جاءت رسائلَ حب ومودة وإعزاز وتقدير.

حملتها إليه سلال كان يتلمحها قبيل أن يغفو وحين يستيقظ ويُفيق، وكانت السلال ممهورة بأسماء محبيه على بطاقات تتسق ولون الطرود.

استمع إلى الشاعر يقول:

وسلالٌ منَ الورِد،

ألمحُها بينَ إغفاءةٍ وإفاقه

وعلى كلِّ باقةٍ

اسمُ حامِلِها في بِطاقه

ويدور حوار من نسج الخيال بين الشاعر والزهور والورود، يتخيل الشاعر خلال هذه المناجاة رحلة الورود إليه منذ أن استحالت فتيات على أغصانهن.

قد دهشن واتسعت عيونهن ببراءة في لحظات الجني، وأثناء الأسر والسبي على أيدي الجامعين لهن الذين حطموا قلوب الفتيات) الورود (في قطف قاسٍ

أشبه بقصفٍ مدمر لحياة الآدميين؛ وأحكام من الإعدام دون جريرة ومن دون ذنب.

يقول دنقل:

تَتَحدثُ لي الزَهراتُ الجميلهْ

أن أَعيُنَها اتَّسَعَتْ – دهشةً–

لَحظةَ القَطْف،

لَحظةَ القَصْف،

لحظة إعدامها في الخميلهْ!

لقد تكبدت الزهور في رحلتها لفراش الشاعر معاناة ومأساة فقد وقعت الأزاهير كملكات من فوق عرش الحدائق والبساتين.

سقطت الملكات مغشياً عليهن ليُفقن في سجون من زجاج معارض الورود، أو على أصوات الباعة وقد أمسكوا بالورود عارضين لها كفتيات في سوق نخاسة.

ولم تلبث هذه الزهور طويلاً في أيدي الباعة المتعرقة، فقد تناوشتها أيادي المشترين المُعجبة والحانية، والزهور وإن لم تتخلص من الأسر تماماً إلا أنها مع سيدها الجديد من المشترين أفضل حالاً وأسعد صحبة ومرتفقاً.

يقول أمل:

تَتَحدثُ لي..

أَنها سَقَطتْ منْ على عرشِها في البسَاتين

ثم أَفَاقَتْ على عَرْضِها في زُجاجِ الدكاكينِ، أو بينَ أيدي المُنادين,

حتى اشترَتْها اليدُ المتَفضِّلةُ العابِرهْ

ولَكَم كانت هذه الملكات) الزهور (رحيمة مُضحية فرغم أنها تجود بالأنفاس الأخيرة بحياتها عبقاً وشذاً وحسناً وجمالاً.

نراها تحدث الشاعر عن رحلتها إليه ضارعةً ترفع أكفها الخضراء داعية ترجو للشاعر الشفاء العاجل، والعمر المديد، وأن يكون من بعدها ممتعاً بالسعادة والراحة والعافية.

يقول دنقل:

تَتَحدثُ لي..

كيف جاءتْ إليّ..

)وأحزانُها الملَكيةُ ترفع أعناقَها الخضْرَ(

كي تتمنى ليَ العُمرَ!

وهي تجودُ بأنفاسِها الآخرهْ!!

أخيراً ..يزاوج الشاعر بين حياته التي أوشكت على الرحيل بحياة باقات الورود التي لم يبقَ في نضارتها وأريجها إلا القليل لتسلم النفْس إلى أفول وذبول.

لقد صارت كل طاقة من طاقات الورود بين إغماءة الشاعر وإفاقته، بل بين سكراتها هي ويقظتها تودّع الحياة مثل الشاعر بانتزاع أنفاس معدودات بين اللحظة واللحظة.

وهي في ذلك كله تجود بروحها راضيةً بأن يكون آخر العهد بالحياة أن تعانق رائحتها أنف الشاعر ويختلط عبيرها بعرقه المتصبب وإن كانت قد وشَت باسم قاتلها أو قاطفها ومُهديها.

يقول الشاعر:

كلٌّ باقةْ..

بينَ إغماءة وإفاقةْ

تتنفسُ مِثلِيَ – بالكادِ – ثانيةً ..ثانيةْ

وعلى صدرِها حمَلتْ – راضيةْ...

اسمَ قاتِلها في بطاقةْ!

4–بين يدي" عشاء "أمل دنقل

هذه محاولة لملامسة معاني قصيدة" العشاء "للشاعر أمل دنقل؛ نتجشم خلالها التعرف على تخوم القصيدة وعرها وسهلها بشيء من التأمل والقراءة

المتعمقة لعالم دنقل الرحب في معانيه، المكتنز في كلماته ومبانيه، تلك القصيدة قليلة المبنى، مُلغزة المعنى، مُقلَّصة المتن، مُحكَمة النظم.

وكما كانت حياة الشاعر قصيرة ممتلئة بالأحداث مفعمة بالعاطفة والشاعرية، كانت هذه القصيدة ومضات كحياته، معدودة الكلمات كسنوات عمره، ولَّادة سخاء في مراميها ومعانيها كتراثه المتنبئ المنير الذي أثرى به المكتبة الشعرية.

في مأدبة عَشاء اجتمع على مائدتها مجموعة من المرتزقة النفعيين ممن يقتاتون على دماء الشعوب، ويملؤون البطون من عرق الفقراء المكافحين، ويُشبعون أنفسهم من ثمرات وحصاد ما زرعه الآخرون.

يلوح لنا أن الشاعر قد تصور أنه نجح في التسلل إلى هذه المأدبة ليلاً حيث اندس وسط المدعوين، لائذاً بظلام الليل، وستر المساء، مغيراً قليلاً من سمته وزيه؛ ليتوارى خلفهما يؤازره في ذلك لُكنة ورَطانة تتسقان وأرباب العَشاء من الحاضرين، هكذا نفهم من لازم الأبيات لا من صريحها.

يمم الشاعر قبلته قاصداً حفل العشاء المسائي، ويبدو من تعبير الشاعر أنه فاجأ الحفل والحضور على غير توقع منهم لمجيئه، ولا رغبة في حضوره.

لذا لم يمنحوه إلا برهة من المطالعة، ولم ينعموا عليه إلا برمقة حاسرة من خائنين لِئام لحُرٍّ أبيٍّ ارتدت بهم خاسئين.

ولم يُجب واحد منهم تحية الشاعر منشغلين بطعامهم ومرقهم، حيث كانت تجول أيديهم وملاعقهم في صحون الحَسَاء جيئة وذَهاباً.

وتركنا الشاعر لنحدس هل الداعي للوليمة رجل بَخيل جاء بمرق دون لحم، وأحضر ملاعقَ صغيرة وضن بالكبيرة ..أم أنه بروتوكول عِلية القوم في مآكلهم ومآدبهم وحفلاتهم.

أو أن صغار الملاعق رمز ودلالة على التمتع بالمطعوم فهم يأكلون أكل متعة وتلذذ لا أكل جوع ومسغبة ..كما تركنا لنخمن هل عدم ردهم تحيته بتحية وسلامه بسلام مبعثه الازدراء والنكران.

أم هو الانشغال بالحَسَاء والاندماج مع الطعام، أم هي عُصبة الشر لا تداهن ولا تسالم ولا تجنح لداعي السلام؟!

يقول أمل:

قصدتهم في موعد العشاء

تطالعوا لي برهة.

ولم يرد واحد منهم تحية المساء!

.....وعادت الأيدي تراوح الملاعق الصغيرة

في طبق الحَسَاء

أفصح الشاعر قليلاً عن قضيته الملغزة، كاشفاً عن بعض كلماتها الموحية؛ إذ إنه تأمل إناء الطعام فوجد فيه عصارة دم الفقراء؛ وهو واحد منهم، فقد ألْفَى في الوِعَاء حقاً مهضوماً، وعَرَقاً مُستباحاً، ومظالمَ حمراء؛ ما دعاه لأن يصرخ قائلاً:

ويلكم أيها الجشعون الظالمون إنكم تحتسون وتشربون دمي وعَرَقي، وتأكلون وتمضغون لحمي وعصبي، بل وتسحقون كِياني وعظمي.

أفيقوا من غيكم، وأقلعوا عن جُرمكم، إنه وِعاء دماء الفقراء، إنه دمي فكفوا وارعووا ..إلا أن الآكلين لم يحفلوا بهتافه، ولم يهتموا لاستغاثته، ولم يأبهوا لصرخاته.

وبقيت أيديهم تناوش صغارَ الملاعق، ومكثت الشفاه تتلمظ مستمتعة بمذاق الدماء المسفوحة حراماً، والمجباة عَنْوةً وقسراً وقهراً.

يقول دنقل:

نظرت في الوِعَـاء:

هتفت)) :ويحكم ....دمي

هذا دمي .....فانتبهوا((

.....لم يـأبهوا!

وظلّت الأيدي تراوح الملاعق الصغيرة وظلت الشفاه تلعق الدماء!

5-مع" العينان الخضراوان .."لـ أمل دنقل

نقف أمام قصيدة" العينان الخضراوان "لـ أمل دنقل متأملين، ولعل الجديد هنا أن نلمح مزايلة الشاعر للهموم السياسية وإن لم يتخلَّ عن تباريحه وهمومه وأحزانه.

يبدو أن الشاعر أحس بحاجته إلى نزهة وواحة، إلى رحلة هدوء وراحة؛ ليتذكر عيني حبيبته الخضراوين اللتين تشبهان مروحتين تلطفان ما به من رهق الصيف الحار، ولفح النهار القائظ.

هاتان العينان في سحرهما تشبهان أغنيتين هزجتين مسافرتين أُرسلتا عبر ناي الرعاة ذي الشجن الأسيان المعروف، والحنان الممتد المألوف، المتدفق شديد التأثير في النفس كأنه شذا نرجس أو عبير أقحوان.

إنه ناي حزين حنون يتسق وأجواء الحزن المخيمة على مدن الشاعر التي تعيش داخله، ويجوس هو خلالها فيما يحاكي برقية عزاء من نور إلهي يصل إلى قلبه فينعشه وينسيه، ويجلوه ويسليه، ويسرِّي عنه ويرضيه.

استمع إلى أمل:

العينان الخضراوان

مروّحتان

في أروقة الصيف الحرّان

أغنيتان مسافرتان

أبحرتا من نايات الرعيان

بعبير حنان

بعزاء من آلهة النور إلى مدن الأحزان

لقد مكث الشاعر مدة عامين يعالج تباريح الهوى وصبوته، ويعاني آلام الحب وآماله وسطوته، كأنه ملَّاح يبتني قارب حب وزورق هوى من عرامة شوقه، ولهيب عشقه.

أراد بهذا القارب أن يكون مطيته للإبحار في عيني معشوقته اللتين تجتذبانه لجزر هادئة بالكنوز ثرية.

وكم يطيب للشاعر أن تكون رحلته في العينين رحلة محاطة بالمخاطر؛ محفوفة بالمغامرات.

وهو يأمل في تلك الرحلة أن يصيبه موج البحر أو تلمسه دموع عيني محبوبته حتى يكون الغريق في عينين غاليتين ينعم فيهما بغطاء من رموشها وأهداب مقلتيها.

حيث إن منتهى الأمل والأمن أن يكون مختبئاً في عيني حبه باحثاً عن أداة تنجيه من لذة ممتزجة بألم في رحلة بحث عن يقين وامتزاج وإيمان وأمل.

استمع إلى دنقل:

سنتان

وأنا أبني زورق حبّ

يمتد عليه من الشوق شراعان

كي أبحر في العينين الصافيتين إلى جزر المرجان

ما أحلى أن يضطرب الموج فينسدل الجفنان

وأنا أبحث عن مجداف

عن إيمان!

***

وفي توظيف رائع للتراث المسيحي، يستدعي الشاعر صمت الكنائس الخاشع، وصور البتول المرخاة الجفون، في تصوير محبوبته بالعذراء التي سكبت المحبة لبناً يحتسيه ملتمسو البركات ومريدو النفحات خلال طقوس من صلوات الغفران المتبتلة، ودعوات الإنابة والقبول الضارعة.

وهو يرى في إسدال عيني حبيبته أو) صورة العذراء (قرب الحبيب وما إليه وصول، فالعينان قريبتان إلا أنهما مسبلتان لا تقبلان ولوج الشاعر إليهما في محيط الرؤية؛ بل هو النأي والبعد بَعْد إرخاء الجفون وما يوحي به من صد وإبعاد وانحسار؛ كيف لا؟

والمحبوبة كالعذراء شغلها محراب الحب الإلهي الآسر عن محبات الناس وإعجابات البشر، فشبابها تفنيه قديسةً في ذكر وعبادة للخالق الكريم.

وإذن فلا مجال لتفكير في غيره لأن الله هو الذي اجتباها على نساء العالمين ..انتقاها واصطفاها، فما يضيرها إذا رضي الإله حتى لو غضب الأنام جميعهم.

يقول الشاعر:

في صمت " الكاتدرائيات " الوسنان

صور " للعذراء " المسبّلة الأجفان

يا من أرضعت الحبّ صلاة الغفران

وتمطى في عينيك المسبّلتين

شباب الحرمان

ويناشد الشاعر) العذراء (أو محبوبته أن تسمح له بنظرة، أو ترنو إليه بمقلة، فهو المتعطش للحاظ عينيها.

يريد أن يتأكد هل عينا العذراء كعيني حبيبته ذواتيْ اللون الأخضر المريح للبصر، والمنداح للتساؤل والفكر، والمنساب للخيال والنظر، والمتسع كبحر مترامٍ دون شواطئ أو مرافئ أو جُزر.

كم يشقى ويسعد الشاعر ببحثه عن حب ووصل، عن تيه وعزل، عن نسيان في بحر الحب، عن عينين خضراوين تلوّحان له برموش تحمل نسائمَ باردة تكفكف ما أصابه من شدة القيظ وبأس الحر وأسر الحب!

يقول دنقل:

ردّي جفنيك

لأبصر في عينيك الألوان

أهما خضراوان

كعيون حبيبي؟

كعيون يبحر فيها البحر بلا شطآن

يسأل عن الحبّ

عن ذكرى

عن نسيان!

والعينان الخضراوان

مروّحتان!

6-قراءة في" قصيدة حمامة "لـ أمل دنقل

نحاول مجدداً سبر شيء من أغوار عالم أمل دنقل الحافل بالغموض، الموشّى بالإلغاز، ذلك العالم الرحيب، عميق الرمز، بعيد الغرض، أبيّ الشفافية والبوح.

ويلوح لي في" قصيدة حمامة "أن الشاعر يعقد موازنة بين زمنين متباينين متضادين، الزمن الأول القديم كان يتسم بالوقار الحالم، ويجود بالهدوء، ويمنح السكينة، ولا يضن بالأمن والطمأنينة على أهله من إنسان، أو حيوان، أو طير.

بينما الزمن الآخر الجديد له من الصخب والجلبة ما يحول بين الكرى والجفون، وما يبث الخوف والقلق والتوجس في ربوع المدينة، حتى أنه ليطال الطير الوادع أينما حط وهبط، أو طار وحلّق.

وقد تكون هذه الموازنة والمفارقة بين حياة الريف السعيدة الهانئة الآمنة، وحياة المدينة الجافة العجْلى اللاهثة الصاخبة.

فهذه حمامة بيضاء كالنهار، كانت آمنة مطمئنة في الزمن الأول، إلى أن دبت في أوصال الشوارع والطرقات ضجة مدوية أزكتها أرتال من السيارات التي يحسن قائدوها الانطلاق بها ولا يعرفون للروية والتمهل مَهْيَعاً.

وليس للسكينة والأناة والتروي عليهم من سلطان، فهم دوماً في هدير صاخب، يضاعفه ما تصدره أصوات الأبواق الصارخة، من ضجيج لا مبرر له

يدمغ الرؤوس، ويصك الآذان، ويوحش النفوس، ويرهق الأرواح، ويخلع الأفئدة، ويفتت الأكباد.

ويبدو أنه لم يعد هناك مكان مناسب لهذه الحمامة في زمن الضجيج الجديد، فحيث كانت في إغفاءة من سِنة كادت تحلم فيها مستعيدة ظلال الماضي الهادئة من أهداب الأمن الوافر، ومرافئ الأمان المبثوثة.

واختارت الحمامة تمثال نهضة مصر كأنها أرادت أن تلتحم به فتكون جزءاً من لبنات النهضة في مصر إذا بصوت شاحنة أو مركبة يفيقها من غفوتها، بل يفزعها من سكرتها فنراها قد طارت فَرِقَة مرعوبة ..طارت ربما قبل أن تفتح عينيها من الإغفاءة!

استمع إلى الشاعر حيث يستهل قصيدته قائلاً:

حمامة

حين سَرَتْ في الشارعِ الضَّوضاءْ

واندفَعَتْ سيارةٌ مَجنونةُ السَّائقْ

تطلقُ صوتَ بُوقِها الزاعقْ

في كبدِ الأَشياءْ:

تَفَزَّعَتْ حمامةٌ بيضاءْ

(كانت على تمثالِ نهضةِ مصرْ..تَحْلُمُ في استِرخاءْ)

هذه الحمامة المفزّعة طارت فَرَقاً ورهباً لكنها لم يطل بها الطيران إذ سرعان ما لاحت لمقلتيها قبة جامعة القاهرة فغرها من القبة لون الذهب وأصالة معدن النحاس.

وكانت القبة تظلل ساعة الجامعة ذات الميناء الفسيح والأجراس التي كانت صامتة في هذه اللحظات، فلاذت الحمامة المتعبة بسكون وهدوء لم يطلا.

فما أسرع أن تخلت الساعة عن وقارها وأعلنت أجراسها تمام بلوغ الدقيقة الستين، لتنتفض الحمامة من جديد طائرة مخلِّفة عقارب الساعة الزاحفة وأجراسها الهادرة، باحثة عن أمن وأمان يلفانها في غير هذا المكان.

استمع إلى أمل وهو يقول:

طارتْ، وحطَّتْ فوقَ قُبَّةِ الجامعةِ النُّحاسْ

لاهثةً، تلتقط الأَنفاسْ

وفجأةً :دندنتِ الساعة ودقتِ الأجراسْ

فحلَّقتْ في الأُفْقِ ..مُرتاعة!

لقد استجمعت الحمامة كل ما بقي لديها من قوة، فحلّقت في كبد السماء لتنأى بنفسها عن المخاطر قاصدة الأمن في السماء بعد أن افتقدته بين ربوع الأرض، وبدا لها أن تستقر فوق تبة طريق عالية.

وما أن أسدلت الحمامة جناحيها حتى راعها من شرطي المرور حركة وإشارة بيده كانت معتادة للمارة بسياراتهم فحسبته المسكينة حارس زراعة ونباتات يذبّ الطيور، وينفّر العصافير، ويطرد الحمام، فمُلئتْ منه رعباً وخوفاً وأسلمت جناحيها في أسى وكمد للريح.

يقول أمل:

أيتُها الحمامةُ التي استقرَّتْ

فوقَ رأسِ الجسرْ

) وعندما أدارَ شُرطيُّ المرورِ يَدَهُ..

ظنتُه ناطوراً ..يصدُّ الطَّيرْ

فامتَلأتْ رعباً(!

أخيراً ..يخاطب الشاعر الحمامة التي أضناها الطيران، وأوهنها التحليق، وأثّرت بها معاناة البحث عن الأمن والأمان والسكينة والسلام بالمدينة فلم تُلْفِ ظلاً لها، ناصحاً لها أن تتردد على قِباب القبور وترجِّع بحزن قصائد الفناء والمعاناة والخوف.

فما من أمل يلوح بعودة الماضي التليد الجميل، وليس هناك صباح يحمل معه جديد أمل أو بشير خير، وليس هناك بُد إذن من تضحية الحمامة بحياتها في سبيلها للخلاص والراحة.

فعليها أن تلزم الهديل والنوح، والشكوى والبوح حتى يتخطفها الموت فبين براثنه وحده الرحمة والراحة، وفي حضنه فقط الدفء والسكينة المنشودة، والطمأنينة المبتغاة والمرادة.

وبموت الحمامة وملامسة جناحيها للأرض دون حراك يبدأ فجر صباح ونور لا للمدينة الحزينة وأهلها البؤساء بل للحمامة المسكينة الباحثة عن الروْح والراحة اللذين لم تحظَ بهما إلا على عتبات الفناء والموت.

فهل ترى الشاعر ينعى نفسه وقد كان مُعنَّى بالشعر والمرض؟!

يقول دنقل:

أيتها الحمامةُ التَّعبى:

دُوري على قِبابِ هذه المدينةِ الحزينة

وأنشِدي للموتِ فيها ..والأسى ..والذُّعرْ

حتى نرى عندَ قُدومِ الفجرْ

جناحَكِ المُلقى..

على قاعدةِ التّمثالِ في المدينةْ

.. وتعرفين راحةَ السَّكينة!

7-نظرة تأمل في" صلاة "أمل دنقل

سيظل القرآن الكريم أبداً المعين الذي لا ينفد، والكنز الذي لا يفنى، والمدد الذي لا ينقطع، والغنى والثراء الذي لا يُخشى في رحابه فقر ولا عوَز ولا حاجة.

فهو الحديث المغدِق أسفله، المثمِر أعلاه، تعلوه الحلاوة، وتكسوه الطلاوة، يعلو دوماً ولا يُعلى عليه.

لذا فإن من أراد أن يضفي على كلامه بهجة من الحسن، ومذاقاً من البلاغة والسحر، ووشْياً من الفصاحة والبيان والجَرْس؛ فعليه أن يعطر حديثه وكتاباته بآيات من الذكر الحكيم.

على أن يحسن مستلهم آيات القرآن انتقاءها، ويصيب في اختيارها، في غير تكلف ولا اعتساف، ومن دون تمحك ممجوج، أو تقحم في سياق فاسد مرفوض، أو تأويلات يند النص المقدس عن مراداتها، أو يتصادم مع أهدافها ومراميها وغاياتها.

ومن التقنيات الفنية المستخدمة في الأدب المعاصر – شعره ونثره – أسلوب استدعاء أو استلهام أو توظيف التراث بشخصياته ونصوصه، ويطيب لي أن أفرق بين القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة وبين التراث.

ففي تصوري أن القرآن الكريم له من الهيبة والجلال، والقدسية والجمال؛ ما يكفل له أن يتفرد دائماً بالوصف والدرس، وطرائق التعامل مع آياته وسوره.

وليس ذلك فقط من منطلق شرعي وديني، وإنما أيضاً من منطلق علمي وبلاغي وأدبي؛ ذلك أن معجزة القرآن الكريم هي عين نصه ومنهجه.

فإعجاز القرآن في سبكه ونظمه، وصوغه ومزجه، وإحكام صياغته، ورصانة وتتابع آياته وسوره، فضلاً عن نبل دلالاته، وعظيم إنسانياته، وسامي منطلقاته وحواراته، وسامق مقاصده وغاياته.

يأتي بعد ذلك ما صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في الدرجة التالية من التهيب والاحترام عند ولوج ساحة نصوصه الصحيحة، والتعرض أو النهل من أحاديثه الجامعة الماتعة التي لا خلاف في ثبوتها، ولا مشاحة في اتصالها بالنبي الأكرم – صلى الله عليه وسلم.–

ثم يبقى بعد ذلك التراث بالمعنى التاريخي الذي يحمل القدم في ثناياه، والعراقة في حناياه، وتعدد العصور الزمنية بما تفرزه من ثقافات مختلفة، وفنون متباينة، ومنتجات أدبية وتاريخية وعلمية تضخ روح عصرها، ونبض أمتها، وبصمة كاتبها، ورؤى مفكريها وفلاسفتها وأدبائها، وجهود وتجارب علمائها، فضلاً عن ما ينسب للسماء من رسالات وكتب وصحف قبل انبلاج الإسلام وهيمنته.

والآن ..سنرى – معاً والحكم في النهاية لكم – هل الراحل أمل دنقل وُفّق في استلهام القرآن الكريم من" سورة العصر "في قصيدته" :صلاة"، أم أنه أخفق في الاستدعاء والتوظيف، أو أخل بقدسية النص وروح الاقتباس.

أو تراه قعدت به فنيته الشاعرة عن التحليق؛ فأضعف من بناء القصيدة، وأوهى من نسيج الخشوع والتضرع بين يدي محرابه وفي أثناء صلاته ..والآن مع محاولة لقراءة قصيدته" صلاة.."

يستهل الشاعر قصيدته مستمداً بعضاً من آيات الإنجيل مناجياً ربه الذي قهر بقيوميته جميع خلقه ف{هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله}؛ وهو كما خلق ورزق لا يزال المهيمن المسيطر على مصائر الخلق.

فنحن عباده ورعاياه ولن يتركنا لبطش جيش أو شرطة، أو لجور حاكم أو سلطان، أو لسطو قوانين موظّفة مدبرة ومُعدة.

فالله من أسمائه القوي الذي يقصم المتجبرين بجبروته، إن دعاه المستضعفون جهراً، أو لاذوا بالصمت الضارع همساً، والسكوت المبتهل الخاشع قلباً، وهم لا يزالون في معيته ورحابه وكنفه وحفظه{ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.{

يقول أمل:

أبانا الذي في المباحث .نحن رعاياك.

باقٍ لك الجبروتُ.

وباقٍ لنا السكوتُ.

وباقٍ لمن تحرسُ الرهبوتُ.

ثم ينتقل الشاعر مستلهماً بعض آيات" سورة العصر"؛ لتصوير فرادة الله بالتيسير، وبيان ما في رحابه من سعادة ونجاح، في حين يُمنى من يؤم غيره بالشقاء المهين، والخسران المبين.

وهم الأسفلون دوماً مهما داهنوا بعطاياهم أو دارَوْا، وخدعوا بإعلامهم وغروا ولفُّوا ودارُوا، أو رَشَوْا بأموالهم وأضلوا، أو سحروا أعين الناس ومكروا، وزيفوا الحقائق وقلبوا الأمور، أو قاموا بين الناس بالسِّعاية والوِشَاية، أو سكتوا عن الحق سكوت الشياطين الخُرْس والأبالسة الصُّم.

يقول أمل دنقل:

تَفَرَّدتَ وحدَكَ باليُسرِ .إنَّ اليَمينَ لفي الخُسرِ.

أما اليسارُ ففي العُسرِ ..إلا الذين يُماشون

إلا الذين يعيشونَ يَحشُونَ بالصحفِ المشتراةِ

العيونَ فَيَعشُون .إلا الذين يَشونَ.

وإلا الذين يُوَشُّونَ ياقاتِ قُمصانِهم بِرِبَاطِ السُّكوت!

ونلمح الشاعر يعرّج على تقديس الإله الأعظم، الذي يحلُم على ذامّيه وسابّيه وشاتميه، لكنه إن يبطش أو يأخذ فهو العزيز القادر المقتدر، الذي لا تغيب عنه حركة فلك دائر، ولا يعزب عنه سكون جِرم ساكن في أي مكان من

سلطانه أو سائر ملكه وأكوانه، في حين يتقلب الناس بين حاكم ومحكوم، وقاضٍ ومتهم، ومعتقل وسجان.

وأسماء الله وصفاته وتجلياته جَمّة في عظمتها، محيطة في قدرتها، لا حد لمشيئتها، ولا بُعد لطلاقتها، ولا مدى لاتساعها ورحابتها؛ ومن ذلك صبره وحلمه، وإمهاله وإرجاؤه، لا تغيره الأحداث.

فهو الحق الثابت الذي يغير ولا يتغير، الخلّاق الذي مست رحمته الفراشات فرقَّت، ولمس لطفه العنكبوت فوهنت دارها، ودقت خيوطها،} وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت.{

يقول دنقل:

تَعَالَيْتَ .ماذا يَهُمُّكَ مِمَّنْ يَذُمُّكَ؟ اليومُ يومُكَ

يرقَى السجينُ إلى سُدَّةِ العرشِ..

والعرشُ يُصبحُ سِجْناً جديداً وأنتَ مكانُكَ .قد

يتبدلُ رسمُكَ واسمُكَ .لكن جوهرَكَ الفردَ

لا يتحولُ، الصمتُ وَشْمُكَ .والصَّمْتُ وَسْمُكَ

وَصَمْتٌ – حيثُ التَفَتَّ – يرينُ وَيَسْمُك

والصمتُ بين خيوط يدَيْكَ المُشبَّكَتَيْنِ المُصْمَغَتَيْنِ يَلُفُّ

الفراشةَ ..والعنكبوتْ

***

وأخيراً ..يختتم الشاعر قصيدته منادياً ربه، مناجياً خالقه، بأنه الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون، وإن كان بعض صنائع قدرته قد كُتب لها الخلود، مثل :أهازيج القلوب، وأشعار الثورات، وقصائد الشعوب، وحر الانتفاضات.

فكيف للحي القيوم أن تعتريه سِنة أو يأخذه نوم، فضلاً عن أن يصيبه فوْت، أو يدركه موْت؟!

يقول أمل:

أبانا الذي في المباحثِ .كيفَ تموتُ

وأغنيةُ الثَّورةِ الأبديةِ لَيْسَتْ تموتُ!!

8-خطاب غير تاريخي ..لأمل دنقل

نحن إزاء استدعاء واستلهام تاريخيين لشخصية صلاح الدين الأيوبي، ذلكم البطل الذي يمثل ثمرة جهود لأبطال آخرين شاركوا في تربيته وتنشئته وبناء شخصيته، وإن لم يشتهروا شهرته، ويحظوا بألقه وأضوائه، فضلاً عن الدراسات التي تعرضت لصلاح الدين الأيوبي ونَعِمَت بسيرته.

شاعرنا أمل دنقل لدوافع قومية نسجت شخصيته، وأثّرت في حياته وأعماله، يخاطبنا بألا نفرِّط ولا نتهاون في عروبتنا وقوميتنا وعزة أمتنا.

أو كما عبر هو في رائعة أخرى له بعنوان) :لا تصالح(، يرى أن علينا أن نظل حذرين متيقظين بحيث نكون على أُهْبَة الاستعداد لملاقاة الأعداء، ومجابهتهم وصدهم ذوداً عن بيضة العروبة، وحوض القومية، وقداسة أراضينا.

وإننا إن وادعنا أو استرخينا، أو صالحنا وداهنا الأعداء فإنما هي الخيانة عينها لجهود صلاح الدين، والنابهين من معاصريه والسابقين عليه، فقد كان صلاح الدين أيقونة نصر لجهود سابقين عليه ومعاصرين له.

وإن كان قدره أن يكون هو رمز الجهاد والبطولة خاصة بعد حطين؛ لذا فيجب ألا نحيل بطولته طبولَ فخرٍ ورقصاتِ زهوٍ وحماقة.

لقد كان صلاح الدين – كما يراه – الشاعر سفينة نجاة للعرب الذين غرقوا في الذل والهوان دهوراً بتفرقهم وخيانة بعضهم؛ حتى باتوا كأنهم ملعونون

تلاحقهم لعنات الفراعنة الأجداد، وتتناوشهم سفائن مجرمي القراصنة وقاطعي السبل من المرتزقة والمشركين.

يقول الشاعر:

أنتَ تَسْترخي أخيراً..

فوداعاً..

يا صَلاحَ الدينْ.

يا أيُها الطَبلُ البِدائيُّ الذي تراقصَ الموتى

على إيقاعِه المجنونِ.

يا قاربَ الفَلِّينِ

للعربِ الغرقى الذين شَتَّتْهُمْ سُفنُ القراصِنه

وأدركتهم لعنةُ الفراعِنه.

بمرور الأعوام وكر السنين أصبحت موقعة حطين ذات الجلال والهيبة مجرد ذكرى للانتشاء والاجترار، وتعويذة بركة تُتلى للأطفال، ودواء آمل لمستقبل مهيض عقيم.

فحطين تضارع الآن موروثات التراث العربي كجبل التوباد الذي استلهمه شوقي في مسرحية ليلى والمجنون، بل لقد تنكر العرب حتى لهذه الرموز العربية، وعقدوا معاهدات وتطبيعات مع الأعداء حتى صارت أرضنا كأنها

أرض غريبة علينا؛ لكثرة ما وطئتها أقدام الأجانب زياراتٍ واستثماراً، احتلالاً واستعماراً.

يقول أمل:

وسنةً ..بعدَ سنه..
صارت لهم" حِطينْ.."
تميمةَ الطِّفِل، وأكسيرَ الغدِ العِنّينْ
)جبل التوباد حياك الحيا(
)وسقى الله ثرانا الأجنبي(!

لقد حدثت على مدار التاريخ انتكاسات فكرية وسياسية وقومية عربية، فكما شهد تاريخ العرب تألق أمجاد الفرسان الأتراك، فقد شهدت البقعة العربية غزوات المشركين من الغزاة والمحتلين.

وداست سنابك خيولهم حضارة العرب، ودكت رفيع أمجادهم، ثم ما لبث أن آل الأمر إلى تقطيع وتمزيق ربوع الخلافة إلى دويلات وممالك وجمهوريات؛ فظلِلْنا أجيالاً مقهورين منهزمين منكسرين أمام الغزاة المحتلين.

وللأسف، فإن إعلاماً فاسداً – كان في أحايينَ كثيرة – يصور الهزائم نصراً، والضعف قوة، والجبن والفرار والخور شجاعة وتقدماً واستبسالاً، على حين كانت جيوشنا وجنودنا يتساقطون صرعى بالأسلحة التي يتقلدونها أحياناً!

يقول أمل دنقل:

مرَّتْ خيولُ التُركْ

مَرت خُيولُ الشِّركْ

مرت خُيول الملكِ – النَّسر،

مرتْ خيول التترِ الباقينْ

ونحن – جيلاً بعد جيل – في ميادينِ المراهنه

نموتُ تحتَ الأحصِنه!

لقد فسد إعلام القومية بصوته وبوقه ومقالاته وصحفه؛ فهوَّن وقلل من مرارة وفداحة الهزيمة، وصور الأعداء بالمستثمرين والمصلحين رغم احتلالاهم وفسادهم وإفسادهم.

وتصور الشاعرُ صلاحَ الدين في خِضَم هذه الأحداث يقف خطيباً صارخاً فينا :انتبهوا ..تذكروا حطين والنصر المبين، تذكروا الذِّكر والعزة، وارتفعوا فوق الذل والخسة، كان صلاح الدين يخاطب كل مِصْرٍ بلهجته، وكل قطر برَطانته ولُكنته.

ويتوجه الشاعرُ لصلاحَ الدين قائلاً :أراك تحاول جمع العرب على كلمة سواء، ينسون خلالها أشلاء خلافاتهم، وشتات نزعاتهم، تحاول أن تجمع الكل على وحدة واحدة لا يفرق بينهم زي ولا عادة.

لكن مع الأسف لم يُجدِ التقريب بينهم، رغم إخلاص صلاح الدين ومشاركته وتعاونه، لم يُجدِ تقريب صلاح الدين بين الأمة العربية لرفع راية واحدة لاسترداد سليب الأوطان.

وفجأة قرر صلاح الدين أن ينحر جواده، رمز الجهاد والبطولة، ثم سرعان ما سقط صلاح الدين مغتالاً على أيدي الخونة والمرجفين من أبناء عروبتنا وبني جلدتنا!

يقول دنقل:

وأنتَ في المِذياعِ، في جرائدِ التَّهوينْ
تستوقفُ الفارين
تخطبُ فيهم صائِحاً" :حِطّينْ.."
وترتدي العِقالَ تارةً،
وترتدي مَلابس الفدائيّنْ
وتشربُ الشَّايَ مع الجنود
في المُعسكراتِ الخشِنه
وترفعُ الرايةَ،
حتى تستردَ المدنَ المرتهنَة
وتطلقُ النارَ على جوادِكَ المِسكينْ
حتى سقطتَ – أيها الزَّعيم
واغتالتْك أيدي الكَهَنه!

أخيراً ..يُعرِّض الشاعر بأن الأوطان المستباحة لا تُسترد كرامتها بقرارات أجنبية جوفاء لا تسمن ولا تغني من جوع، ثم يتوجه لصلاح الدين قائلاً:

لِتنم يا صلاح الدين فقد صرت صنماً يُنظر إليه للنشوة والسياحة التاريخية، صِرتَ تمثالاً لا يُحرِّك في أمتك إلا ساكن قص التاريخ وروايته، ونثر الأزهار فوق قبرك الذي يحاكي قبر الجندي المجهول من فرق الجيوش الحديثة.

على حين تغرق الأمة في سمر وشوق المترفين، يأكل أفرادها غالي الثمار متفكهين، يأكلون أكلة المتنعمين ويقشرون التفاح بالسكين.

وهم مع ترفهم وتنعمهم يسألون الله قروضاً حَسَنة من الأعداء الذين لا يجودون إلا بقروض ربوية، فاقرأ سلاماً على أمةٍ، قد صُلي عليها وكبر أربعاً دون ركوع، فقد تُودع من شعوبها بأم الكتاب ودعاء الختام والقبول.

يقول الشاعر:

***

)وطني لو شُغِلتُ بالخلدِ عَنه(..

)نازعتني – لمجلسِ الأمنِ – نَفسي(!

***

نم يا صلاحَ الدين

نم ..تَتَدلى فوقَ قَبرِك الورودُ..

كالمظلِّيين!

ونحنُ ساهرونَ في نافذةِ الحَنينْ

نُقشّر التُفاحَ بالسِّكينْ

ونسألُ اللهَ" القُروضَ الحسَنه!"

فاتحةً:

آمينْ.

9-جبل ابن خفاجة ..إطلالة شاعرة

سيضح لنا بعد هذه الإطلالة على" بائية ابن خفاجة "التي نخالها من عيون الشعر العربي كيف لشاعر غَزِلٍ لاهٍ يُدعى البستاني، ويلقب بصنوبري الأندلس، ويشتهر بالجَنَّان؛ لكثرة غزلياته ولهوه ووصفه طبيعة الأندلس الخلابة وحدائقها الغناء، أن يصف جبلاً شامخاً بين عَدْوَتَي المغرب والأندلس، أتُرى لأن الشاعر عُمِّر طويلاً وسئم الحياة كما عُمِّر هذا الجبل؟!

يستهل الشاعر قصيدته متسائلاً ترى ما الذي دفعه لرحلة عبر الفيافي، تزجيه وتسوقه رياح الجنوب، سواء كان فوق ظهور الجِمال أو حادياً لها وربما منيخاً بالإبل ومقيلاً.

1- بَعَيشِكَ هَل تَدري أَهوجُ الجَنائِبِ تَخُبُّ بِرَحلي أَم ظُهورُ النَجائِبِ

وهو في سفرته الطويلة وارتحاله الشاق إذا لاح له المشرق بكواكبه، سرعان ما تختفي هذه النجوم بمرور الوقت مع بزوغ أجرام أخرى من جهة الغرب إذا سجى الليل.

2- فَما لُحتُ في أولى المَشارِقِ كَوكَباً فَأَشرَقتُ حَتّى جِئتُ أُخرى المَغارِبِ

إن الشاعر في رحلته الصحراوية هذه يبدو منفرداً، تُسلمه صحراء إلى أخرى غير آمن، فتتضح له صور من المصارع، وأشكال من الحتوف خلال ظلمات الليل في الصحراء المرعبة.

– 3وحيداً تَهاداني الفَيافي فَأَجتَلي وَجوهَ المَنايا في قِناعِ الغَياهِبِ

وهو في هذه الوحدة لا أنيس له من جارٍ ولا ديَّار، بل يأتنس إن هو ائتنس بسيفه رهيف الحدِّ مستتراً أحياناً بركوبته ومتاعه.

– 4وَلا جارَ إِلّا مِن حُسامٍ مُصَمَّمٍ وَلا دارَ إِلّا في قُتودِ الرَكائِبِ

وربما التمس الشاعر شيئاً من الطمأنينة إذا ما تعلق لحظاتٍ بأمنياته التي تبرق له مع ما ينازعه من رجاءات ويطمح إليه من آمال.

– 5وَلا أُنسَ إِلّا أَن أُضاحِكَ ساعَةً ثُغورَ الأَماني في وُجوهِ المَطالِبِ

إن الشاعر كلما استشعر دنو مرور الليالي وانتهاء الظلمات، سريعاً ما يتبدد هذا الشعور مع استمرار الليل وجثومه فيتبدد بذلك إحساسه غير الصادق.

– 6وَلَيلٍ إِذا ما قُلتُ قَد بادَ فَانقَضى تَكَشَّفَ عَن وَعدٍ مِنَ الظَنِّ كاذِبِ

وفي الليل المظلم ساير الشاعر تخوم الظلام، ومرتفعات الدياجي، آملاً أن يحظى بإدراك آماله في نهار مشرق أبيض.

– 7صحبتُ الدَياجي فيهِ سودَ ذَوائِبٍ لِأَعتَنِقَ الآمالَ بيضَ تَرائِبِ

والشاعر إذا أحس أن الليل الطويل كاد ينجلي، رمق بعينيه ذئباً مفترساً يكشر عن أنيابه في عبوس وتنمُّر فيدرك لحظتها أن الليل لا يزال يلفُّه والنهار ما زال بعيداً.

– 8فَمَزَّقتُ جَيبَ اللَيلِ عَن شَخصِ أَطلَسٍ تَطَلَّعَ وَضّاحَ المَضاحِكِ قاطِبِ

وطال ليل الشاعر حتى أنه ليرى كسفاً من الفجر الكاذب، فضحتها نجمٌ تلألأ مبدداً شيئاً من غبش الليل وظلمته.

– 9رَأَيتُ بِهِ قِطعاً مِنَ الفَجرِ أَغبَشاً تَأَمَّلَ عَن نَجمٍ تَوَقَّدَ ثاقِبِ

وصاحَب الشاعر في ترحاله جبلاً شامخاً عالي القمة كاد يلمس السماء بكاهله وجنباته وتضاريسه ونتوءاته.

– 10وَأَرعَنَ طَمّاحِ الذُؤابَةِ باذِخٍ يُطاوِلُ أَعنانَ السَماءِ بِغارِبِ

هذا الجبل لو أراد من فرط ضخامته حجب الرياح، أو إخفاء أجرام الليل الملتمعة برُباه وذُراه وتخومه لفعل.

– 11يَسُدُّ مَهَبَّ الريحِ عَن كُلِّ وُجهَةٍ وَيَرحَمُ لَيلاً شُهبَهُ بِالمَناكِبِ

ويبدو هذا الجبل الأشم كعجوز وقور رابض بالصحراء، حنَّكته التجارب فهو مُطرق إطراق المتأمل المفكِّر في القضايا ومآلات الأحداث والأمور.

– 12وَقورٍ عَلى ظَهرِ الفَلاةِ كَأَنَّهُ طِوالَ اللَيالي مُفَكِّرٌ في العَواقِبِ

يبدو جبل ابن خفاجة كشيخ تلفُّ عليه السحب والغمام ما يشبه العمامات السوداء، وحين تبرق السماء بشفق أحمر خِلْتَ هذه العمامات موشَّاة بذيول حمراء.

– 13يَلوثُ عَلَيهِ الغَيمُ سودَ عَمائِمٍ لَها مِن وَميضِ البَرقِ حُمرُ ذَوائِبِ

لقد تفاعل الشاعر مندمجاً مع الجبل فجرده من جماديته وأدخله في عالم الإنسان، وبأنسنة الشاعر للجبل نراه يرعى سمعه للجبل ليقص الجبل عليه غرائبَ تُلطِّف من سير الشاعر وتهِّون من وعثاء سفره.

– 14أَصَختُ إِلَيهِ وَهوَ أَخرَسُ صامِتٌ فَحَدَّثَني لَيلُ السُرى بِالعَجائِبِ

ويروي الجبل أنه كثيراً ما كان سِتراً للقتلة المجرمين الفارين المختبئين بحناياه، ولطالما كان صومعة للمتأوهين الضارعين من المتحنثين لله التائبين إليه.

– 15وَقالَ أَلا كَم كُنتُ مَلجَأَ قاتِلٍ وَمَوطِنَ أَوّاهٍ تَبَتَّلَ تائِبِ

واسترسل الجبل في قصِّه وحكاياته فلطول مقامه كم شهد من السالكين بالليل والعائدين من التسفار، والمنيخين بظلاله مطاياهم وأمتعتهم بعد أن ألقوا جميعاً عصا التسيار.

– 16وَكَم مَرَّ بي مِن مُدلِجٍ وَمُؤَوِّبٍ وَقالَ بِظِلّي مِن مَطِيٍّ وَراكِبِ

وكما شهد الجبل أحداثاً أرضية على سفحه، شهد أيضاً أحداثاً طالت السماء سموقاً، فكم جابهت الجبل رياح عاتيات في ذراه وجنباته العالية، وكم تكاثرت على نتوءاته العالية سحب مسوقة من مياه البحار المتبخرة حوله.

– 17وَلاطَمَ مِن نُكبِ الرِياحِ مَعاطِفي وَزاحَمَ مِن خُضرِ البِحارِ غَوارِبي

كل من مرَّ بالجبل أو تعرَّض له كانت خاتمته بنهاية الأجل المحتومة، فإما أن يقضوا باستيفاء آجالهم، وإما عاجلتهم أقدارهم بحتوف ومنايا من رياح مدمرة أو مصائب مزلزلة.

– 18فَما كانَ إِلّا أَن طَوَتهُم يَدُ الرَدى وَطارَت بِهِم ريحُ النَوى وَالنَوائِبِ

إن ما تسمعه أيها الشاعر من حفيف شجرٍ، أو اهتزاز أغصانٍ، ما هو إلا اختلاجات في صدري، وما يصل إلى أذنيك من هديل الحمام إن هو إلا أنَّاتٌ مكتومة صادرة عن بثي وحزني وعويلي ومكابدتي.

– 19فَما خَفقُ أَيكي غَيرَ رَجفَةِ أَضلُعٍ وَلا نَوحُ وُرقي غَيرَ صَرخَةِ نادِبِ

ولا يغرنك تماسك عيوني عن الدمع فالأشجان التي ألمَّت بي كثيرة، ولا يزال الحزن على فراق أحبتي قابعاً في صدري، أما دمع العيون فنفد منذ زمان، وما تراه من تجلُّدي وصبري ليس ضناً بالبكاء فكم بكيت حتى جفَّ دمعي!

– 20وَما غَيَّضَ السُلوانَ دَمعي وَإِنَّما نَزَفتُ دُموعي في فِراقِ الصَواحِبِ

لقد طال أجلي، وامتد بي العمر، فإلى متى يظل مكوثي أودِّع أناساً ذاهبين راحلين غير آيبين ولا عائدين.

– 21فَحَتّى مَتى أَبقى وَيَظعَنُ صاحِبٌ أُوَدِّعُ مِنهُ راحِلاً غَيرَ آيِبِ

وإلى متى أسامر أجرام السماء، وأشاركها سهر الليالي، فإن أفل بعضها في بقعة من السماء بزغت كواكب ونجوم أخرى ليستمر معها سهري ونَصَبي.

– 22وَحَتّى مَتى أَرعى الكَواكِبَ ساهِراً فَمِن طالِعٍ أُخرى اللَيالي وَغارِبِ

يا الله، ليس لي إلاك أنا عبدك وأنت مولاي، ارحمني وتقبل دعائي، ولا ترد كفَّ آملٍ يطمع في آلائك وكرمك ورضاك.

– 23فَرُحماكَ يا مَولايَ دعوَةَ ضارِعٍ يَمُدُّ إِلى نُعماكَ راحَةَ راغِبِ

لقد استمع الشاعر إلى ما بثه الجبل من عظاتٍ، وألوانٍ من الحكمة ولَّدتها تجاربُ الحياة، وأثارتها مؤانسة الشاعر فجَرتْ على لسان الجبل حِكَماً وعِبراً.

– 24فَأَسمَعَني مِن وَعظِهِ كُلَّ عِبرَةٍ يُتَرجِمُها عَنهُ لِسانُ التَجارِبِ

لقد كان الجبل خير جليس وأنيس للشاعر منحه عظاتٍ غاليات مُبكيات، وخفَّف عنه قسوة الليل بأشجان لطَّفت من ضراوة الليل والصحراء التي برَّحت به.

– 25فَسَلّى بِما أَبكى وَسَرّى بِما شَجا وَكانَ عَلى عَهدِ السُرى خَيرَ صاحِبِ

أخيراً تأتي لحظة الوداع، وأنَّات الفراق؛ إذ فارق الشاعر الجبل كما فارقه غيره من المارِّين به لمهمَّات وحاجات لا بد من قضائها، فلا يزال الجبل جاثماً باقياً مترجلاً ولا يزال الشاعر ظاعناً مرتحلاً ومودعاً.

– 26وَقُلتُ وَقَد نَكَّبتُ عَنهُ لِطِيَّةٍ سَلامٌ فَإِنّا مِن مُقيمٍ وَذاهِبِ

يقول ابن خفاجة:

– 1بَعَيشِكَ هَل تَدري أَهوجُ الجَنائِبِ تَخُبُّ بِرَحلي أَم ظُهورُ النَجائِبِ

– 2فَما لُحتُ في أولى المَشارِقِ كَوكَباً فَأَشرَقتُ حَتّى جِئتُ أُخرى المَغارِبِ

– 3وحيداً تَهاداني الفَيافي فَأَجتَلي وَجوهَ المَنايا في قِناعِ الغَياهِبِ

– 4وَلا جارَ إِلّا مِن حُسامٍ مُصَمَّمٍ وَلا دارَ إِلّا في قُتودِ الرَكائِبِ

– 5وَلا أُنسَ إِلّا أَن أُضاحِكَ ساعَةً ثُغورَ الأَماني في وُجوهِ المَطالِبِ

– 6وَلَيلٍ إِذا ما قُلتُ قَد بادَ فَانقَضى تَكَشَّفَ عَن وَعدٍ مِنَ الظَنِّ كاذِبِ

– 7صحبتُ الدَياجي فيهِ سودَ ذَوائِبٍ لِأَعتَنِقَ الآمالَ بيضَ تَرائِبِ

– 8فَمَزَّقتُ جَيبَ اللَيلِ عَن شَخصِ أَطلَسٍ تَطَلَّعَ وَضّاحَ المَضاحِكِ قاطِبِ

– 9رَأَيتُ بِهِ قِطعاً مِنَ الفَجرِ أَغبَشاً تَأَمَّلَ عَن نَجمٍ تَوَقَّدَ ثاقِبِ

– 10وَأَرعَنَ طَمّاحِ الذُؤابَةِ باذِخٍ يُطاوِلُ أَعنانَ السَماءِ بِغارِبِ

– 11يَسُدُّ مَهَبَّ الريحِ عَن كُلِّ وُجهَةٍ وَيَزحَمُ لَيلاً شُهبَهُ بِالمَناكِبِ

– 12وَقورٍ عَلى ظَهرِ الفَلاةِ كَأَنَّهُ طِوالَ اللَيالي مُفَكِّرٌ في العَواقِبِ

– 13يَلوثُ عَلَيهِ الغَيمُ سودَ عَمائِمٍ لَها مِن وَميضِ البَرقِ حُمرُ ذَوائِبِ

– 14أَصَختُ إِلَيهِ وَهوَ أَخرَسُ صامِتٌ فَحَدَّثَني لَيلُ السُرى بِالعَجائِبِ

– 15وَقالَ أَلا كَم كُنتُ مَلجَأَ قاتِلٍ وَمَوطِنَ أَوّاهٍ تَبَتَّلَ تائِبِ

16– وَكَم مَرَّ بي مِن مُدلِجٍ وَمُؤَوِّبٍ وَقالَ بِظِلّي مِن مَطِيٍّ وَراكِبِ

17– وَلاطَمَ مِن نُكبِ الرِياحِ مَعاطِفي وَزاحَمَ مِن خُضرِ البِحارِ غَوارِبي

18– فَما كانَ إِلّا أَن طَوَتهُم يَدُ الرَدى وَطارَت بِهِم ريحُ النَوى وَالنَوائِبِ

19– فَما خَفقُ أَيكي غَيرَ رَجفَةِ أَضلُعٍ وَلا نَوحُ وُرقي غَيرَ صَرخَةِ نادِبِ

20– وَما غَيَّضَ السُلوانَ دَمعي وَإِنَّما نَزَفتُ دُموعي في فِراقِ الصَواحِبِ

21– فَحَتّى مَتى أَبقى وَيَظعَنُ صاحِبٌ أُوَدِّعُ مِنهُ راحِلاً غَيرَ آيِبِ

22– وَحَتّى مَتى أَرعى الكَواكِبَ ساهِراً فَمِن طالِعٍ أُخرى اللَيالي وَغارِبِ

23– فَرُحماكَ يا مَولايَ دعوَةَ ضارِعٍ يَمُدُّ إِلى نُعماكَ راحَةَ راغِبِ

24– فَأَسمَعَني مِن وَعظِهِ كُلَّ عِبرَةٍ يُتَرجِمُها عَنهُ لِسانُ التَجارِبِ

25– فَسَلّى بِما أَبكى وَسَرّى بِما شَجا وَكانَ عَلى عَهدِ السُرى خَيرَ صاحِبِ

_26وَقُلتُ وَقَد نَكَّبتُ عَنهُ لِطِيَّةٍ سَلامٌ فَإِنّا مِن مُقيمٍ وَذاهِبِ

10-زهراء ابن زيدون ..إطلالة شاعرة

خلعت الطبيعة الأندلسية طيفاً من سحرها وجمالها على نفسية شاعرنا ابن زيدون، فنرى قصيدته في وصف ضاحية الزهراء قد تزيَّت بمشهد من الجمال الرائق من المرائي المبثوثة حوله في جنبات ضاحية الزهراء.

ما انعكس على إحساس الشاعر رهافةً وصفاءً، متذكراً حبه القديم الذي لا يزال يتجدد ماؤه، وينبض دمه، ويعتلج في فؤاده، على رغم التنائي بعد وشاية وقطيعة حالتا بينه وبين حبيبته) ولَّادة.(

والزهراء ربما نقرأها معادلاً موضوعياً لولَّادة التي قد ذكرها الشاعر في لهفة وشوق عارميْن استبدا بقلبه العاشق.

في حين كان سحر الطبيعة من حوله يرفرف بين السماء والأرض على عبير هذه الذكرى بجناحين رائقين صافيين رُسِمَا بريشة شاعرة بمداد روعةٍ وفتنةٍ وجمال.

لقد اندمج الشاعر مع الطبيعة وقاسمها حُسنها وتألقها فشاركته الطبيعة إحساسه وشجونه.

فها هو نسيم الأصيل الذي كان يسري قُبيل المساء نَزِقاً هَزِجاً صار الآن معتلاً حَدَباً وعطفاً وإشفاقاً على الشاعر المأزوم نفساً والمعتل قلباً وروحاً.

وهذه الحدائق الغناء المزدانة بالخضرة النضرة والثمار اليانعة، قد تدفق الماء الصافي في حناياها بلون الفضة المصقولة.

كأنه يبسم عن ثغر مشرق يضاهي بياض صفحة عنق معشوقته الحسناء وصدرها المخدور الذي سرعان ما تكشف النسائمُ الجريئة عن إحاطته بهالة موشَّاة بنور أبيض، وقد استدارت هذه الهالة بعنق الأزهار أو هي قد طوَّقتْ جِيد المحبوبة وأحاطتْ في رقةٍ بنحرها.

يقول ابن زيدون:

إني ذكرتُكِ بالزّهراءِ مُشتاقَا *** والأفقُ طلقٌ ومرأى الأرضِ قدْ راقَا

وللنسيم اعتِلالٌ في أصائلهِ *** كأنهُ رقّ لِي فاعْتلّ إشفاقَا

والروضُ عن مائهِ الفضيّ مبتسمٌ *** كما شققتَ عنِ اللباتِ أطواقَا

لَكَمْ كانت للشاعر ومحبوبته لقاءات بريئات حيث استبد بهما لهوٌ عُذري مازح، بعد أن أَسَرَتْ أعينهم أزاهيرُ احتملت طلّاً أو ندى أثقلها ومال بأعناقها.

تماماً كعروس تحاول حَمْل شيء ثقيل لكنها لم تسطع بسببه أن ترفع رأسها فمال عنقها بعد محاولة مضنية منها ورغبة جادة في إصرار على نجاح المقاومة وإن ازدادت وطأة الحِمْل وضراوة الثِّقْل.

وهذه الزهور المتباينة لوناً وطِيباً، المختلفة مَرْأى وعَرْفاً باتت مآقيها دامعةً بعد إذ أحست بأسى الشاعر واستشعرت سهاده وقلقه وسهره، فجرى منها دمع العين مُترقرقاً مُنساباً.

يقول ابن زيدون:

نلهُو بِما يستميلُ العينَ منْ زهرٍ *** جالَ الندى فيهِ حتى مال أعناقَا

كأن أعينهُ إذ عاينتْ أرقي *** بكتْ لما بي فجالَ الدمعُ رقراقَا

11 – نافذة على مجنون ليلى

عالجت مسرحية مجنون ليلى الشعرية، لأمير الشعراء أحمد شوقي، مأساة عشق درامية جمعت بين قيس بن الملوح وليلى العامرية طفلين ثم صبيين يرعيان الأغنام في الفلوات، ثم ما لبثت تقاليد البداوة أن فرقت بينهما حين كبرا وترعرعا.

كانت قوانين البداوة هذه تثرِّب على المحبين العاشقين، فترى في زواج من عُرف حبهما أو اشتُهر عشقهما عاراً، وربما أذكى هذا الحجب القَبلي بين قيس وليلى خلافات مادية حدثت بين الأسرتين إثر تنازع على حقوقٍ في الميراث.

لقد أحب" قيس "ابنة عمه" ليلى "منذ أن كانت طفلة تتدلى خرزة زرقاءُ من جيدها لتقيها – زعماً – شر العين والحسد، وكانت" ليلى "في عمر الفَراش وبراءة الزهور جاريةً دون سن البلوغ.

وكم كان يتمنى" قيس "لو توقف الزمان بهما صغيرين يرعيان الماشية ويلهوان حولها منطلقين عابثين لا يخافان رقيباً ولا يَفْرَقَان من أحد أو يفزعان.

يقول قيس:

تَعَلَّقتُ لَيلى وَهيَ غِرٌّ صَغيرَةٌ

وَلَم يَبدُ لِلأَترابِ مِن ثَديِها حَجمُ

صَغيرَينِ نَرعى البَهمَ يا لَيتَ أَنَّنا

إِلى اليَومِ لَم نَكبَر وَلَم تَكبَرِ البَهمُ

ونراه في قصيدة أخرى يقول:

تَذَكَّرتُ لَيلى وَالسِنينَ الخَوالِيا

وَأَيّامَ لا نَخشى عَلى اللَّهوِ ناهِيا

ثم اضطرت" ليلى "تحت وطأة حكم أسرتها وناموس البادية أن تتزوج من رجل يُدعى ورد بن محمد العقيلي؛ ما دفع" قيس "أن يهيم على وجهه في البراري، يكتنّ بالقفار والجبال، ويُشارك الظباء الطعام والماء، يشق ملابسه، ويحادث نفسه هروباً واعتراضاً!

لم يكن لـ"قيس "من عزاءٍ سوى التغني بـ"ليلى "والتشبيب بها، إلى أن وُجد المسكين ميْتاً بين صخور وأحجار" جبل التوباد"، بعد أن أضرب عن الطعام لزواج" ليلى "أولاً، ولموتها آخراً وذلك فيما يُشبه الانتحار السياسي!

الآن ..اسمحوا لي أن أقف عَجِلاً أمام مشهد استرعى ناظري من مسرحية شوقي الرائعة، يوازن فيها الشاعر، على لسان هند ابنة خالة ليلى، بين حياة

البدو الخشنة وحياة الحضر الناعمة، حيث تخاطب" هند "ابن ذريح الذي قدم عليهم من سفره إلى يثرب وبغداد فتقول:

إنك يا ابن ذريح ما وجَّهت ناظريك حول ربوعنا إلا ألفيتها كمقابر مخيفة، تستوحش منها النفس، ويفزع منها القلب، قد خوت من كل شيء ناضر بل ربما خلت من العظام والرُّفات البالية!

لقد مللنا قسوة قفارٍ، وجفاء صحراء، ليستا تجودان إلا بما يُمسك الحياة ويُبقي – في شحٍّ وغلظةٍ – ما قدره الله من أجل ورمق.

ألستَ تملّ معي من رؤية مُضرِم النار ومُشعلها لطهوٍ أو لاصطلاء وتدفئة، فإذا ولَّيت وجهك شطر جانب آخر ألفيتَ أحد حالبي الشياه قد جلس القرفصاء مُصطبحاً أو مُغتبقاً يستدر اللبن من ضروعٍ بين شحيحةٍ ومانحة.

وإنك لن تجد – يا ابن ذريح – جديداً يسرك خلف خيامنا، فما هي إلا النياق منهمكة في حوارٍ وشجارٍ متبادل بالثغاء والرغاء مع الغنم والماشية حول الأحق بالمرعى والحشائش المتناثرة.

ثم تنتقل" هند "إلى إبراز ما تتميز به مدن الشام والعراق ذات المباني الشاهقة، حيث لا لفح حرٍّ، ولا قَرّ بردٍ، ولا مضاجع مكشوفة هناك باردة ولا عارية.

إنكم تستمتعون في حواضركم بعقائر أشهر المغنين من المنشدين اللامعين كأمثال" معبد "و"الغريض"، على حين نقنع نحن بأصوات الضباع، وعواء الذئاب، وزئير السباع الضارية، فهي سمرنا في الليالي الموحشة والمرعبة.

حتى طعامكم طابت روائحه، ولَّذت نكهاته، تفننتم في إعداده وطهيه وتقديمه فيما حسُن وتزخرف من آنية.

وليس لنا طعام إلا ما جادت لنا به الماشية، من بين فرثٍ ودمٍ ليس غير اللبن خالصاً سائغاً، أو ما تحوَّل عنه من أقط قديم جاف، أو من رائب الحليب المُجبَّن بالأوعية.

يقول أحمد شوقي:

هند:

تأمَّلْ تر البيدَ يا بن ذريح

كمقبرةٍ وَحْشَةٍ خاويَهْ

سئمنا من البيدَ يا بن ذريح

ومن هذه العيشة الجافيَهْ

ومن مُوقدِ النار في مَوْضِعٍ

ومن حالب الشاة في ناحيَهْ

وراغيةٍ من وراء الخيام

تُجيبُ من الكَلأ الثاغيَة

وأنتم بيثربَ أو بالعراق

أو الشام في الغُرَف العاليَهْ

مُغنِّيكمو مَعْبَدٌ والغريضُ

وقيْنتُنا الضَّبُعُ العاويَهْ

وقد تأكلون فُنُونَ الطُّهَاةِ

ونأكل ما طَهتِ الماشيَهْ

بيد أن" ليلى "ترى في البيداء ما لا تراه ابن خالتها" هند"، فـ"ليلى "تستدرك على" هند "قائلة لابن ذريح:

قد أخطأتْ" هند "وجانبها الصواب في تعنُّتٍ واعتسافٍ واضحيْن، بل أبدت قسوتها على مسقط رأسها، ولم تشهد بحقٍّ أو مَعْدَلة.

الصحارَى والبوادي مساكن يقطنها كرام النفوس، وأصحاب الوفاء من الأصلاء ذوي الضمائر الحية العامرة.

ونفخر بأن الشمس حين تبزغ تمدنا بباكورة جناها من الخير وثمار التدفئة، على حين تمنح الشمس بعيداً أسآر حرارتها مدن الحواضر الباقية.

إن فتيات البدو يبدون كزهور الرياحين الفاتنة مبثوثة في البسيطة الصفراء الممتدة الرحبة الشاسعة.

على حين تبدو فتيات المدن زهوراً محدودة العطر حبيسة المنبت والمغرس والنمو بالأوعية وصغار قَصارِي الآنية.

لقد بلغت فتيات البادية من الإباء والمنعة العزة والشرف أنهن قد يمُتن بالعشق العفِّ يصيبهن في النفس والجسم كمداً ونضوباً وهُزالاً يُفضي بهن إلى الموت والفناء والتهلُكة.

على حين يُحيي الهوى آنساتِ المدن والحواضر ونساءها، ويُشعل فيهن – بتجدده وتعدده – فيوضات القُوى والعافية.

إننا – يا بن ذريح – في البادية بمنأى عن فتن الحياة وزخرفها وهمومها، فقط يشقينا الحبُّ والعشق العُذريان، ولولاه لم يعرف الهمّ والضنى إلى قلوبنا نافذة.

وما أنشط النساء لدينا وأكثرهن قوة حيث يبادرن – غير هيّابات – إلى صيد الظِّباء في أحايين، وفي بعض الأحيان يُنازلن السباع ويقتلن الذئاب الضواري دفاعاً عن أنفسهن والشياه وذوداً عن الصغار والأمتعة.

استمع لأحمد شوقي حيث يقول:

ليلى:

قد اعَتسَفتْ هندُ يا بنَ ذريحٍ

وكانت على مَهدها قاسيَهْ

فما البيد إلا دِيارُ الكِرَامِ

ومَنزلةُ الذِّمَمِ الوافيَهْ

لها قُبْلَةُ الشمس عند البُزوغ

وللحَضَرِ القُبْلَةُ الثانيَهْ

ونحن الرياحينُ مِلْءَ الفضاء

وهنَّ الرياحينُ في الآنيَهْ

ويقتُلُنا العِشقُ والحاضراتُ

يَقُمْنَ من العشق في عافيهْ

ولم نصطَدِم بهُمُوم الحياةِ

ولم نَدرِ – لولا الهوى – ماهيَهْ

وآناً نخِفُّ لصَيْدِ الظباء

وآناً إلى الأسد الضاريَهْ

المقالات الاجتماعية والدينية

1-الشياكة في بلادي

من الناس في بلادي من لا يعبؤون بالشياكة) الأناقة وحسن المظهر (لا بقليلٍ ولا بكثيرٍ، فهم إمّا أن يكونوا من المطحونين المشغولين بالكفاف والضروري من العيش، وإما أنهم ذوو ذائقة لا تحفل بالشياكة ولا تلقي للأناقة بالاً ولا اهتماماً.

ومن الناس في بلادي من تعنيهم الشياكة وتختلب قلوبهم وتستبد بهم الموضات العالمية مسايرةً وعشقاً، وهم في سبيلهم لإدراك موجات الموضة وطرازاتها المتلاحقة يبذلون الغالي والنفيس كيما لا تفوتهم صيحة، أو تخلِّفهم وتتركهم موضة ما ظهرياً.

ومن الناس في بلادي من هم في منزلة بين المنزلتين السابقتين، فلا هم يستدبرون الهندمة والأناقة، ولا هم من عبيدها ومواليها، يُحكِّمون دينهم وعقولهم وفِطَرهم وأذواقهم وطبائعهم فيما يرتدون من زيٍّ، وما يلبسون ويتزينون به من ملابسَ وأمتعة.

كنا نُلقن بعض أصول الشياكة قديماً على أن منها التناسق في الألوان، بعد نظافة الجسد والثياب، فكانت الأذواق تميل إلى لبس الغامق في النصف الأسفل من الجسم على أن يكون اللون الفاتح من جنسه ساتراً للجزء الأعلى من الجسد، وكنا نقر بألا يُنتعل" كوتشي "مع بذلة أو جاكت) بليزر(، أو ينتعل حذاء جلدي على بنطال من نوع" الجنز "ونحوه.

وكنا كذلك نستغرب موضات مضت أمواجها كانت تجعل في بناطيل الرجال "أزراراً "لا أزمة منزلقة" سُوسَتاً"، كما كنا لا نُقبِل على بناطيل صُنعت أرجُلها واسعة للغاية كأنها محاكاةً لأرجل الفِيَلة، وإن راجت وانتشرت وقبلتها أذواق بفترة السبعينيات، كما كنا نستهجن ارتداء القصير فوق الطويل من المعاطف.

الآن في مصر – وربما في غيرها من البلدان – موضات بقدر ما تكلِّف الساعين لها والحريصين عليها أموالاً ترديهم في أتون السَّرَف والمَخِيلَة، بقدر ما تكون مستبشعة مستهجنة لدى أصحاب الفطر السوية والأذواق النقية.

ومن ذلك ارتداء" البناطيل "الجديدة المهترئة في أجزاء منها والممزقة والمثقوبة من فوق الركب وأسفلها سواء في ذلك الشبان والبنات.

ومن أسفٍ أن يَطال طمسُ الموضات العقول والأذواق ويغشى ثياب المتدينات، فترى بعض المنتقبات ظاهراً، قد فتنت الناس بمكياج يُبدي الحسن من فتحتي عينيها المبالغ فيهما، أو من رسوم كفيها ويديها المتفَنن في وشيهما، على نحو يزري بصاحبة النقاب ويُسقطها.

وربما جلب لها لعنات القلوب والألسنة؛ لأنها لا هي منتقبة محتجبة مصونة ولا هي متبرجة سافرة مملولة، بل هي تُبدي بعض فتنتها فتجعل الأذهان تعتمل بما رأته منها لتتخيل ما بطن من جمالٍ داخلي أخفته ولم تكشف عنه.

ومن أسفٍ كذلك أن تصل الموضة في مصر إلى حد ارتداء كثيرٍ من المصريات لبعض الملابس الداخلية أعلى الملابس الخارجية؛ وهن بذلك يبدين حسنهن متبرجات بزينة، بل كاشفات مجسِّمات لمواضع الفتنة من صدور وأرداف.

وهن لسن بذلك أحسن حالاً من مصريات الستينيات والسبعينيات اللائي لبسن القصير والمجسم والعاري والمفتوح دون الشفيف واللصيق الحديثين.

بني وطني، لنعد إلى ديننا، وسُنة نبينا، والأعراف الطيبة لآبائنا وأمهاتنا، فالشياكة قد تتحقق مع شظف العيش، والأناقة الحقة لا تتعارض مع تعاليم الدين ومبادئه، كان النبي – صلى الله عليه وسلم – أجمل الخلق قلباً وقالَباً على تواضعٍ منه وبساطة.

ليلبس كل منا ما يروق له ويتسق مع قدره ما أخطأته خصلتان سَرَف ومخيلة، ولا يأسر امرؤ نفسه بصيحات تخيب أكثر مما تنجح، وتضر أكثر مما تنفع.

رحم الله الشيخ الشعراوي لم يمنعه جلبابه وعكازته ونظارته وطاقيته شيئاً من الأناقة والجلال، ولم يَحُل الزي الأزهري يوماً دون شياكة وهيبة الشيخ الغزالي وشيوخ الأزهر جميعاً – رحمهم الله ورضي عنهم.–

2-المقاهي في بلادي

لا يكاد يخلو ميدان في بلادي، بل شارع رئيس، وربما شوارع غير رئيسة وأزقة وحارات من مقهى أو أكثر، لقد بات أي مشروع لو فشل توجهه، أو بارت سلعته، أو خاب رجاء صاحبه فيه إلا تبادر إلى الأذهان تحويله إلى مشروع ناجح لا ريب ولا يكون ذلك المشروع إلا مشروع المقهى.

لست ضد المقاهي في حد ذاتها، خاصة إن تحلت بشروطها الشرعية، فتوفرت فيها المصالح، وانتفعت عنها المضار والمفاسد، لست ضد مقهى يرتاح فيه المسافر، وعابر الطريق، ومنتظر قضاء حاجته، أو إدراك موعده، أو التماس رأي صديق، أو مناقشة أمر ما، أو محاورة ومعاتبة حبيب أو زميل.

لست ضد مقهى يعرض على شاشاته ما يحل ويجوز، ويُعرض عما لا ينبغي ولا يجوز، لست ضد مقهى تدور الأحداث على آرائكه هادئة غير صاخبة، فلا سب ولا شتم، ولا جلبة ولا ضجيج أو إزعاج وضوضاء، فضلاً عن الإسفاف والتبجح والبذاءات.

لست ضد مقهى يقدم مشروبات جائزة مفيدة، فلا نرجيلة ولا دخان ولا مخدرات، لا تلوث لبيئة ولا مرتع ومباءة لبيع خمور، ولا لتعاطي أو معاقرة حشيش وأفيون ومخدرات.

إن المرء ليعجب من امتلاء المقاهي رغم كثرتها، وقد أسائل نفسي :من أين ينفق هؤلاء الناس – في ظل وطأة اقتصادية عاتية – على جلساتهم بالمقاهي

التي قد تطول فتبلغ ساعاتٍ وساعات، بل ربما بجلس بعضهم عليها آناء الليل وأطراف النهار؟!

إن كان المقهى مصدر التماس الناس للمهنيين والحرفيين فربما جاز لنا تصور أن المهنيين يجلسون على المقاهي ينتظرون أرزاقهم بالبحث عنهم، والوصول إليهم ..لكن هذا صار قليلاً في أيام الناس هذه.

أهيب بمن في يده الأمر أن يتابع المقاهي بتخصيص شرطة لها) شرطة المقاهي (يكون من مهامها :متابعة الأحداث على المقاهي؛ لمنع الاشتباكات والكوارث، والقضاء على البلطجة وترويج المحظورات، ووأد الفتن في مهادها، بعد أن تُلزم هذه الشرطة المقاهي بحدودها مكاناً وزماناً، قانوناً وسلوكاً وعُرفاً.

كم أتوق لأن تعود بلادي إلى زاهي عهدها في الماضي، لقد صرتُ على يقين أن بلادي كلما عُدنا بها إلى الماضي كانت أعظم قيمة وأكثر بريقاً، كأنها إن تأخرت زماناً تقدمت وإن تقدمت آناً تأخرت!

لبلادي – منذ القدم – دور وريادة، وأثر وتأثير، وطليعة وصدارة، أرجو الله أن يُعيدها إلى ما يحب ويرضى، وأن يجعلها دوماً بلد المليون مئذنة لا بلد المليون مقهى!

3-الجمعة في بلادي

لقد عِشتُ أعواماً سعيدة في بلادي من التبجيل والتقديس لشعيرة الجُمُعة صلاةً وعبادةً، ربما بدأ هذا الاحتفاء بالجمعة والاحتفال بها من يوم الخميس.

فقد كان آخر الأسبوع يمثل لأبناء جيلي من التلاميذ والطلاب فرحةً ونشوةً غامرتين، نعُد الأيام ونحتسب الساعات للوصول إلى الخميس الذي كان صنواً ليوم الجمعة كأنه من ساعاته.

كنا في أيام الصبا حيث لهونا ولعبنا بكرة القدم وغيرها في متسعٍ من الملاعب والأراضي الزراعية المجانية التابعة لكلية الزراعة جامعة القاهرة.

كنا مع ساعات المتعة واللذة هذه نُوقف المباريات ونُقلع عن ألوان اللهو وصنوف المرح قُبيل النداء بصلاة الجُمُعة، ونذهب في خشوع ضارعين للوضوء والصلاة وإن لم نكن من المبكرين.

لم يكن أبناء جيلي من المحافظين على الصلاة في أوقاتها، فلم تكن الصلاة لدينا – مع الأسف – كتاباً موقوتاً، لكن هذا الأمر لم يكن ليتطرق أو ينسحب على صوم شهر رمضان أو التفريط في صلاة الجُمُعة وشعائرها، فقد كان الصوم وصلاة الجُمُعة بمثابة خطين أحمرينِ لا يجاوزهما إلا مجرم أو فاجر.

كان نهارنا معاشاً حقاً، إما باللهو والصيد والرياضة، أو بالاشتغال بالمذاكرة والتحصيل الدراسي، أو بالعمل الجاد من أطفال وشبان يافعين يرغبون في مساعدة أُسرهم وتحسين أوضاعهم ودخولهم المادية.

في حين كان ليلنا لباساً من القراءة والمدارسة والتعلم أو بالسمر غير الماجن، ثم من بعدها السكينة والراحة والدعة والخلود إلى النوم.

شبَّ أبناء جيلي ثم ما لبثوا أن صاروا كهولاً، ثم شرع بعضنا في دبيبه العمري الزاحف نحو مرحلة الكِبَر والأفُول، وكان تقديرنا خلال هذه المراحل العمرية المختلفة يزداد للصلاة عامةً وصلاة الجمعة خاصةً، فلا كسل ولا تأخير، ولا تفريط ولا تهوين، بل هو التبجيل والتوقير والتقديس.

بل كان بعضنا يجهّز نفسه لصلاة الجمعة من فجرها اغتسالاً، وكيَّ ملابس، وترتيلَ قرآن، وقراءةَ أوراد، وتبكيرَ أوقاتٍ، مع ادِّهان وتعطير أثواب وهندمة هيئات، واستباق صفوفٍ وجماعاتٍ بالمساجد والجوامع والساحات.

لقد كان أحدنا لا يعُد صلاة الجُمُعة جُمُعةً إن حِيل بينه وبين رؤية الخطيب والإمام، وبلغ ببعضنا من التبكير للصلاة أن كانت عقارب العاشرة صباحاً لا تدق إلا وهو يتلو بالصف الأول ما تيسر له من آيات الذكر الحكيم.

الآن الجمعة في بلادي ..لا يغشاها كثير من الناس، فهم بين نائمين وغافلين، ويتأخر عنها كثير من الناس سواء كانوا بائعين أو مشترين، ثم تراهم يأتون

لتخطي الرقاب والتفرقة بين الأحباب، وإنا لنخشى عليهم مَغَبَّةَ حديث النبي –صلى الله عليه وسلم" : –ولا يزال أقوام يتأخرون حتى يؤخرهم الله."!

إلا أن أناساً قليلين من المقربين الراغبين يسارعون إلى الجُمُعة رغبةً ورهبةً وعرفاناً، وحباً وإعزازاً وشكراناً، يعظِّمون شعائر الله التي هي من تقوى القلوب؛ لذا فإنه لم يعُد من الغريب تأخر الخطباء عن ارتقاء أعواد المنابر قاصدين وإن كانوا بالمسجد عاكفين؛ لأنهم أدركوا أن عدداً كبيراً من المسلمين لن يحضر الجُمُعة قبل مرور نحو ربع ساعة على الأذان!

عزيزي القارئ، عوداً عوداً إلى الماضي لا بزمنه فقد ولَّى وفات، لكن إلى سلوكياته الحميدة، وأجوائه السعيدة، إلى رَوْح وراحة وسكينة واطمئنان لنرضي ربنا الرحمن.

فالحج فريضة تجب مرة واحدة في العمر، إن توفرت الشرائط وانتفت الموانع، والصوم أيام معدودات بكل عام حين تغيب موانعه وتتلاشى أعذاره.

والزكاة لا تجب على كثيرين منَّا في ظل أزمات اقتصادية عاصرة، فلم يعد غير الصلاة فإن أبينا توخي المكتوبات والجماعات فهل يبقى لنا من الإسلام غير الجُمُعات؟!

4-الأفراح في بلادي

يعشق المصريون الأفراح كثيراً، عشقهم للطعام والشراب؛ فتراهم لأدنى مناسبة يُعلنون عن فرحهم، تارة بزغاريد النساء وأغانيهن ودفوفهن، وأخرى بال "دي جي "الحديث المدويّ، وثالثة – وإن كانت قديماً أكثر تفشياً – بالطبل البلدي ومزامير الرجال.

ليس حراماً أو عيباً أن يفرح الناس، لكن أن يكون هذا الفرح نكبة على آخرين إزعاجاً لهم بإيقاظ النائمين، وإضرار المرضى والمنومين، وإقلاق الطلاب والمستذكرين، ونشر الفوضى والعربدة والمجون؛ فلا أظن أن يختلف عاقلان على قبح وسوء هذا المسلك فضلاً عن حرمته.

وأسباب الفرح في مصر كثيرة، منها :حفلات أعياد الميلاد، وحفلات الخطوبة، والشبْكة، والتنجيد، وعرض أمتعة الزواج والمنقولات والأثاث، وحفلات عقود الزواج، وحفلات الزفاف، فضلاً عن ليالي الافتتاحات، والإنجاب، والختان، وغيرها.

وقد يسترعي ناظريك فقر كثير من الناس وعوزهم على حماقة منهم وسَرَف، فمن ألوان الفقر أن تستمر الخطوبة بين المخطوبين سنواتٍ، وقد تنتهي بالفرقة بعد الخلاف، وبالشقاق بعد الوفاق، وبالتشهير والافتضاح بعد الستر والتراضي والانشراح.

ومن ألوان الإسراف أن الخِطبة رغم أنها في الشرع لا تتجاوز كونها وعداً بالزواج، فلا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً، إلا أنك ترى كثيراً من المصريين يتعاملون معها على أنها صنوٌ للزواج أو كالزواج نفسه، فيعُلَن عنها، ويُدعى إليها القاصي والداني، وتقام لها الأفراح والساعات الملاح، ويخرج الخاطب وخطيبته وحدهما إلى الأماكن العامة وغير العامة!

ويقف من وراء هذا كله إعلام وفن يؤسسان ويرسخان لباطل ليس من ورائه حق ولا يدعمه دين أو عقل، وهما يذكيان – بذلك – خطراً محدقاً بالأسرة والمجتمع، لا سيما أن كثيراً من المشاهد الفنية حين تُظهر تدخل أحدهم لمنع مشهد غير لائق، أو منظر خادش للحياء بين شاب وفتاة؛ فإذا بالشاب أو الفتاة يقولان في ثورة متبجحة وعرامة مستطيرة" :ليس لك شأن إنه خطيبي ..أو إنها خطيبتي."!

بل بلغ من بعضهم في مشهد سينمائي إثر تقبيل واعتناق بين الخاطب)البطل (والمخطوبة) البطلة(، أن طَمِعَ البطل في أكثر من التقبيل والاحتضان، فقالت له البطلة :لا أستطيع أن أمنحك أكثر من هذا الآن فأنت لا تزال خطيبي، على نحو ما كان من" غرام الأفاعي "وغيره من الأعمال الفنية الرديئة.

إن لي أصدقاء كُثراً من خارج بلدنا الحبيب ظنوا من كثرة ما رأوا من أعمالنا الفنية الهابطة أن مصر ماخور لذة وسوق نخاسة، بل اعتقدوا أن كل مصري هو أخ لراقصةٍ أو زوج لها!

حسبنا امتهاناً وهواناً وكفانا ..ليتنا نُقلع عن سلوكيات جدَّت على مجتمعنا كرقص العريس وعروسه أمام الناس، ورقص البنات والسيدات المشاركات أمام المنازل والساحات على نحو يرخِّصنا ولا يُغلينا، ويجلب لنا العار ويخزينا.

أما من يدٍ طاهرة يَذْكُرها الله ويُخلِّدها التاريخ تعمل على تقنين وتجريم سلوكيات الأفراح الشائنة، في الوقت الذي تُوجه مقص الرقابة وتُعمله فيما يتصادم مع الثوابت الدينية والأخلاقية والعُرفية والإنسانية.

إن المقابح قميئة محظورة في كل ملة وقانون، ومنبوذة مستهجنة بكل شريعة ودين، ورسالة الفن يجب أن تكون سامية في مفرداتها، ولبناتها، وأدواتها، ومن قبلُ في موضوعاتها وأهدافها، تحلِّق بالمجتمع إلى عَنان السماء ولا تثَّاقل به إلى وهاد التراب والطين!

5- اللحية في بلادي

مرَّت اللحية في مصر خلال قرن من الزمان تقريباً بظروف متباينة، وأجواءٍ مختلفة، فتارة تجود الأحداث بإطلاقها، وأخرى تدفع موجات أمنية للإقلاع عنها والحد منها؛ بالعمل والتضييق وبالتلميح لا التصريح.

وأحياناً تكون اللحية مدعاة لتوقير صاحبها وتبجيله، وأحايين أخرى تتسبب في الارتياب فيه وتجريمه.

وكثيراً ما ترتبط اللحية بعمر صاحبها وطبيعة دراسته وعمله، ففي أحوال سياسية ملتهبة يُتجاوز عن إعفائها إن كان صاحبها شيخاً كبيراً) مُسناً (كما هي الحال مع أرباب المعاشات، على حين قد تكون حُجة لضبط وإحضار من صغُرت سنه، أو يَفَعَ عمره، أو توهَّج شبابه، ونما فكره.

وقد يُتغاضى عن صاحبها إن كان أزهرياً أو خطيبَ أوقاف، على أن يقوم بإجراء بعض التعديلات عليها بصورة قد تختفي معها أمارات اللحية وعلاماتها المسنونة!

واللحية في بلادي الآن تنحو – فيما أرى – عدة أنحاء:

الأول لحية صاحبها متدين قلباً وقالباً، يجاهد نفسه، يربيها سُنةً واقتداءً بهدي النبي – صلى الله عليه وسلم – لتربيه سلوكاً وعملاً، وهؤلاء هم أحق بها وأهلها.

والثاني صاحبها يسير مع موجة وموضة عالمية بترك اللحية وتوفيرها، مثلما يرى أبطال الأعمال الفنية من العالميين والدوليين والمحليين، أو مثلما يشاهد نجوم الرياضة غربيين كانوا أو شرقيين.

والثالث رجل دجال أو نصاب، أو منتفع مستغل مستخفٍ خلف شَعَرَاتها متلمساً هيبتها وجلالها، ومقتاتاً على ما يُغري الناس في أصحاب اللحى عطفاً عليهم واحتراماً، وإعزازاً لهم وإكراماً.

والرابع من مطففي الكيل من البائعين الجائلين وغير الجائلين، وقد تكتشف زيف لحاهم بعدة أمارات منها :ظهور إصابات أسلحة بيضاء في أجسامهم، وعدم صلاتهم، أو إهمالهم البيِّن لها.

ومنها طريقة حديثهم، ومخارج حروفهم، فضلاً عن ظلمة تكسو وجوههم وتجلل لحاهم، ودوران ألفاظ قميئة بذيئة على ألسنتهم إن هم ثاروا أو جاروا، أو سألهم أحد المارين عن سلعةٍ ما ولم يبتع منهم.

وثمة لحى مأذوني الأعمال الفنية في الأفلام والمسرحيات والمسلسلات، حيث يُوظف صاحبها أداة للسخرية والتندر، وأضحوكة للجمهور والمشاهدين، حيث يضاف إلى لحيته زي ديني يناسبها، وسمت إسلامي يشاكلها، ولغة عربية ركيكة لا هي بالفصحى ولا العامية!

وهناك لحية من شتَّتْ عقولهم، فهاموا على وجوههم في الخرائب والميادين، ومقالب القمامة، وأسفل الكباري، يبحثون في سلال القمامة عن كسرات

تسد الرمق، وتمسك الحياة التي تتفلت منهم أو تكاد، في أجواء يتصدر المشهد فيها الأمن السياسي، ويتلاشى ويخبو في ربوعها وجنباتها الأمن الاجتماعي، ويغيب فيها حق الإنسان في الطعام والشراب والمأوى والكسوة والعلاج.

إلى أصحاب اللحى ..انتبهوا فإنه ينظر إليكم كدعاةٍ إلى الدين، ورموز ونماذج للمتدينين المحسوبين على الإسلام والإيمان، فاتقوا الله في دينه، إما أن تكون لِحَاكُم متسقةً مع منظومة متكاملة في التمسك بجوهر الدين ومظهره.

وإما أن تهنؤوا بحياتكم متجردين من اللحية؛ فمن أسفٍ أن يكثر وقوع الأعين على ملتحين يدخنون، وآخرين لصديقات يسايرون، وأسوأ من هذا كله وأقبح اجتراء بعضهم على سب الدين!

6-السلام في بلادي

تتطور مصر مثلها مثل بلدان عربية كثيرة، بل مثلما يتطور الكون كله من حولنا، والتطور فيما أحسب له شقان :شق مادي حسي آلاتي، وآخر قيمي عرفي أخلاقي.

والتطور بقسمه المادي مطلوب مندوب بل ربما كان واجباً تثويراً لمعطيات الله في الكون، وإفادة من نعمه وآلائه كشفاً وإجلاءً لها، وتحسيناً وتطويراً لمفردات الحياة ومعطياتها.

أما حديثي إليكم فيدور عن التغيير والتطوير القيمي الأخلاقي والسلوكي، أو إن شئت قلت :التدهور الإنساني في الأصول والثوابت، كما هو متجلٍّ في التخلي عن السلوك والأعراف والتقاليد الطيبة، ومجانبة الموروثات الحسنة.

كان إلقاء السلام في مصر فاشياً حتى عهد غير بعيد، يُسلِّم الراكب على الماشي، ويسلم السائر على الواقف والقاعد، ويسلم الصغير على الكبير، والقليل على الكثير، وربما سلم الكبير على الصغير تواضعاً وحباً، أو دعوةً وتربية وتعليماً.

بل زاد بعضهم في أدبه وتواضعه فكان ينزل من على دابته أو دراجته – حين مروره بجمع من الناس – لإلقاء السلام عليهم وتحيتهم، في تآلف اجتماعي دافئ، وتراحم وود صادق، وتعارف وتواضع غامر.

لاحظت خلال عشرين سنة فائتة تقريباً تقلص إفشاء السلام، بحيث صار في شريحة اجتماعية معينة أو كاد، فترى السلام ممنوحاً مبذولاً أكثر بين أبناء الأربعين ربيعاً فما فوق، كما أنك تكاد تفتقده بين أبناء العشرين والثلاثين ربيعاً، ناهيك عن الشرائح الأدنى!

كما لاحظت استبدال السلام وتحيات الصباح والمساء الموروثة والمعروفة عالمياً، بكلمات جِدّ مختصرة، لا أحصيها لكثرتها وغرابتها، من مثل :]صباحو – صبح صبح – قشدة – أبيض ..إلخ[، بل تقلص السلام أكثر لإشارات وإيماءات بالرأس حيناً وباليد ولحظ العين وغمزها أحياناً.

ووجدت من بين زملائي في العمل من يبادرني بميد يده سلاماً وتحية دون أن ينبس ببنت شفة، فاضطر لمد يدي والرد عليه بـ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أو بـ صباح الخير؛ عسى أن يفهم لكنه يصر كل صباح على السلوك نفسه.

ومما ألفَيْتُه كذلك في بيئة العمل، سلام بعضهم – وهم قلة والحمد لله – على زميلات العمل دون زملاء العمل نفسه، ولست مطلعاً على نواياهم، لكنه سلوك قبيح أن يخص رجل مقبل على العمل النساء بالسلام والتحية دون الرجال، وأقبح منه إن حدث العكس.

ولست مع بعض الدعاة الذين يتشددون فيحصرون السلام في صيغة" السلام عليكم ورحمة الله وبركاته "فقط، وهي أفضل الصيغ لا شك وأكثرها بركة

وأمناً ..لكنهم مع الأسف يحرِّمون غيرها من الصيغ، غافلين عن قوله تعالى : }وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً] {النساء.[86 :

وأرى أن صيغة" السلام عليكم ورحمة الله وبركاته "هي من شعائر الإسلام، ينبغي المحافظة عليها، والعمل بها ونشرها، فعلى المسلم أن يبدأ بها لتكون أصلاً في السلام، ولا بأس إن حيَّاه غيره بغيرها أن يردَّ بأحسنَ منها أو مثلها، ولا نحجر واسعاً فنقول بحرمة غيرها من الصيغ، كمن يبدِّعون السُّبْحَة وتخصيص سجادة لمحراب المسجد) مكان الإمام (وليتهم يقولون فقط إنها خلاف الأولى!

ومما لاح لي كذلك قَرْمَطَة إلقاء السلام والرد؛ بمعنى إلقاء السلام بسرعة خاطفة تختفي فيها معاني الكلمات بعد تآكل الحروف ودمجها، وكذا في الرد على السلام بنحو قول بعضهم، كأنه على سفر أو يخشى فوات طائرة" :تالله وبركاته"؛ فيخرج السلام وربما الرد مشوهاً مقتضباً لا هو سلام السُّنة المُطهرة، ولا هو من تحايا الدنيا الجائزة والمشروعة.

وأختتم بقبس من نور النبوة مما جاء في صحيح مسلم :حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، وَوَكِيعٌ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أولاً أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ.«

7-التثاؤب والعطاس

شاء الله – سبحانه – أن يختص نفسه بالكمال الأجمل والجمال الأكمل التامّين لذاته الأقدس، فهو الحي الذي لا يموت، قيوم فلا يصيبه تعب ولا نَصَب ولا لُغوب، لا تلوح له سِنة ولا يخطُر له نوم، عظيم في ذاته وأسمائه وصفاته وحكمته ومشيئته وجميع مراداته.

والإنسان بعض خلقه، وربما كان من أضعفه،} يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً] {سورة النساء[28 :؛ لذلك رأينا الإنسان دوماً ابن أغيار، تصيبه الأحوال المختلفة، وتكتنفه الظروف المتباينة، وتعصف به كثير من النوازل وتستبد به العلل والخطوب.

ففي الشتاء يحيط بالإنسان البرد القارس الذي يحد من نشاطه وحركته، ويُخمد فيه حركة الدأب وحمية العمل والإنتاج .وفي الصيف، وإن ألفيت الإنسان أكثر نشاطاً من الشتاء، إلا أنك تراه أقل أريحية وأكثر زهقاً وأرقاً، وأوفر استعداداً للاستفزاز والغضب والشجار.

ومن آي ضعف الإنسان، إضافةً إلى حاجته للراحة والدعة والنوم، حاجته إلى العطس المفاجئ والتثاؤب المباغت والسعال المداهم نتيجة تغير الأجواء، أو إثر مرض مُمض واعتلال وداء، وإن كان العُطاس الذي يفاجئ الإنسان ولا يتحكم كثيراً في مغالبته ومقاومته أحبَّ إلى الله من التثاؤب الذي يكون بمكنة الإنسان السيطرة عليه وكبح جماحه والحد من ضراوته وبشاعته.

من الغريب أن تكون آمناً في بيتك أو شقتك ثم تسمع صوتاً غريباً لكنه يتكرر؛ ما يثير فضولك للتعرف على مصدره، ثم تكتشف أنه تثاؤب صادر عن أحدهم، قد جاوز بيته لبيتك، واقتحم شقته إلى شقتك بصوت يجر معه أذيال الخمول والكسل، ويُهدي إليك إحساساً من الإحباط والامتعاض!

وإن تعجب فعجبٌ أن يدهم التثاؤب أحدهم أثناء حديثه فلا هو يغالبه ولا هو يمنعه ويدفعه، ولا يكلف نفسه بتغطية فمه بمنديل أو بكف يدٍ، والأدهى أنه يُصر على إكمال كلامه وحديثه أثناء التثاؤب كأن كلامه وصية مُودع، أو كأن الكلام ستنفد سوقه من الدنيا أو سينزع الدعم عنه ويرفع!

وعجبٌ كذلك أن تنوي الصلاة في جماعة ثم تجد من عن يمينك أو يسارك قد عزم نيته على أن لكل ركعة وحركة تثاؤباً يطول ويقصر، يمنعه تارة ويتركه أخرى، فإذا انتهت صلاة الجماعة نظرت إلى المتثائب فألفيتَه قمةً في اليقظة والنشاط فلا تثاؤب ولا كسل ولا تناوم ولا خمول ودعة اللهم إلا في المكتوبات!

ليعلم كل متثائب وعاطس غير عابئ بتثاؤبه ولا عُطاسه، أنه يؤذي الآخرين بصوت التثاؤب، وفتح الفم، وإلقاء أجواء من الوهن والوخم، وأن العاطس الذي لا ينزوي بعطسه، ولا يستقبله بمنديل ونحوه، هو كذلك يضر بالآخرين برذاذ العطس وهوائه.

وأختتم بضوء من نور النبوة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال :إن الله يحب العُطاس ويكره التثاؤب فإذا عَطَسَ أحدكم وحمد الله كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول :يرحمك الله .وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان .صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

8-مارد المراهقة

سرعان ما تزوجا بعد فترة خطوبة يسيرة لم تتجاوز أربعة أشهر إلا أنها كانت هانئة، بشَّرتْ هذه الخطوبة الأستاذ) أ (وخطيبته المعلمة) ن (بمؤشرات من المودة والرحمة، وإرهاصات من الإعجاب والحب.

رأى) أ (في خطيبته) ن (صداقة الأخت، ورقّة الأنثى وجاذبيتها، وفطنة المربية، وعطاء الأمومة،كما لمست) ن (في خطيبها) أ (سند الأخ، وفروسية المحبوب.

وقرأت فيه رسائل من الأبوّة الحانية؛ لذلك كان التعجيل بالزواج رغبة متبادلة منهما، كما باركتهما الأسرتان في رضاً وتعاون مادي وأُسري عزَّ نظيره.

عاشا) أ (و)ن (زوجين معاً شهوراً وسنينَ عدداً يتقلبان بين صفحاتٍ من الودِّ، وفصولٍ من الحبِّ، وألوانٍ من السعادة، لا يعرفها إلا من ذاق الحب كؤوساً مترعة، وارتشف العشق أكواباً دهاقاً.

كما تبادلا خلال هذه السنوات الجميلات مواقفَ بطولية وتحديات مصيرية تعرضا لها، امتحنت مكانتهما من الصبر والرضا واليقين، وحداهما الأمل في ذرية طيبة تخرج في أجواء من نور العلم والمعرفة وظلال من الأدب والتربية.

توالت على الزوجين نفحات ربانية من الأرزاق والعطاءات بعضها بأسبابٍ أَخَذَ الزوجان بها، وبعضها من دون أسباب كانت من الله محض تفضُّل وتكرُّم ولا حيلةَ لهما فيها.

ومع المولود الأول شَعَرا بسعادة من لون جديد، سعادة امتزجت بأمل مسؤول وتضحيات راغبة، وأحلام في مستقبل واعد للوليد الجديد.

بَذَل الزوجان معاً كل ما بمكنتهما من توجيه وتربية ورعاية وتعليم، وكل ما يملكانه من ماديات في سبيل صنع حياة أفضل للصغار..

نعم فلم يعد الصغير وحيداً، صار له شقيق ثم شقيقتان ..واستجمع الزوجان كل طاقتيهما مادية كانت أو معنوية في عطاء فطري وعلمي واعٍ، ومضت الأيام وصارا الشقيقان مراهقين فإذا بالبيت ينقلب جحيماً!

اخشوشن صوت الشقيقين، وعلت في بذاءة لهجتهما، وتضخمت فيهما الأَثَرَة بعد الإيثار، وغزا قاموسهما الكلامي ألفاظٌ لم يسمعاها قطُّ من أبويهما، ربما تسربت لهما من المدرسة، أو من الشارع، أو من وسائل الإعلام.

أهمل المراهقان كل شيء حسن سويّ تربيا ونشآ عليه عن عمدٍ مخالفةً لوالديهما، واتبعا صراط كل شيء سيئ شائن غريب عن بيتهما، فلم يعودا يحفظان ما كانا يتضلعان من آي الذكر الحكيم.

وتركا صلاة الجماعة والمساجد، وأهملا المذاكرة، وانكبّا على الموبايل، والإنترنت، وصار ليلهما نهاراً ونهارهما ليلاً، ينامان من أطراف النهار وأناء الليل الساعات ذوات العدد.

عبثاً حاول الأبوان السيطرة على مارد المراهقة في الشقيقين؛ فإن أشارا إليهما بلطف لأهمية النظافة الشخصية من الاستحمام الدوري، وغسيل الأسنان

الدائم، وترتيب الفراش والمكان، والمحافظة على سكينة البيت ومراعاة مشاعر الشقيقتين الصغيرتين.

فضلاً عن عدم إزعاج الجيران بالأصوات والحركات التي لا تكون إلا في الملاعب والحدائق الفسيحة، قاما من فورهما بعمل العكس تماماً في تمادٍ وعناد، وعتو ونفور.

فشَعْر الرأسِ قد تغوَّل، ورائحة الجسد قد فاحت، وأظافر اليدين قد توحشت، وانقلب نظام البيت وترتيبه أشلاء في كل مكان، ونتائج الدراسة قد تقهقرت، والأدب مع الأم والأب قد تراجع وانحسر.

سلك الأبوان كل ما يعرفان من طرق تربوية، من ترغيب وترهيب، ومحاورة وشورى، وحسن خطاب، جرَّبا الإشارة والتلميح فلم يُفلحا، واستعملا المباشرة والتوضيح فلم يُجديا، تسلَّحا بالمنْح والمنْع فلم ينجحا.

نصحا بالرياضة والعمل فلم يُسمع لهما، لوَّحا بالقراءة والمكتبات فلم يُعبأ لتلويحهما، خاصما وهجرا، ثم صفعا وضربا فلم يؤبه لهما، لاذا من قبل ومن بعد بالسؤال والدعاء ضارعين لله ولا يزالان.

انسحب مارد المراهقة على الشقيقين فأحالهما عدوين لا يتصالحان إلا ليتخاصما، يريدان أن يعيشا حياتهما بين شاشتين :الموبايل والدِّش، كانا يأكلان ما طاب ولذ وأفاد، صارا يطعمان الأندوميوالشيبسهات.

كانا يشربان العصائر البيتية فأصبحا يرتضعان الكنز والمشروبات الغازية؛ ما دفع الزوجين لسؤال الجيران والناس من حولهم :هل دهاكم ما ألمَّ بنا ..هل تشكون مُصابنا ..هل ظهر بينكم مارد المراهقة؟

قالوا :نعم، لعشر ساعاتٍ بناتنا وأبناؤنا ينامون، فإذا ما استيقظوا فإلى الموبايل يُهرعون، يقرمطون الوضوء إن تطهروا، وينقرون الصلاة إن ركعوا وسجدوا.

يعرفون من الدين الرُّخص ويستدبرون العزائم، أُوتوا من الجدل أعقمه، ومن الفلسفة ألحدها وأضرها، ومن الحوار والنقاش أجهله وأهدمه.

سأل الزوج زميلاً له من حملة القرآن الكريم ومن الأئمة الموقرين المعتمدين.. مولانا ماذا نصنع ..وإلى أين الملاذ والمفزع؟ هل وصل إليك الأندومي المُكَيَّس وأخواته؟

}قال له صاحبه وهو يحاوره :{في البدء اعترضت، وبكل قوة منعت وصددت ..ثم ..أردت مناصحة أولادي عن قرب فاستدرجوني مرةً وكانوا يأكلون فشاركت.

وبالطعم الرهيب زينوا لي طبقي من الأندومي فأكلت ..بعدها ..رجوتهم ألا يأكلوه كل يوم وبذلك رضيت من الغنيمة بالإياب ..واكتفيت!

عزيزي القارئ، إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، والمعادلة ذات طرفين هما :الأبوان، والمراهق، أناشد الأبوين أن يصبرا لله ويدعوانه، ولا يملان أبداً ويحتسبانه.

وأهمس في أذن المراهق أن اقترب خطوة من والديك، خطوة واحدة مبذولة من الطرفين تُضيِّق الهُوّة التي اتسعت، والفجوة التي استبانت، عسى أن يعود مارد المراهقة إلى قمقمه ..أو يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده.

9-الموبايل

للهاتف المحمول أهمية عظمى يعرفها جمهور الناس، فضلاً عن رجال الأعمال والنابهين والمثقفين .وهو من نعم الله المحدثة علينا التي تستوجب الشكر والعرفان لا الإسراف والطغيان، ويجب علينا أن نُقابل هذه النعمة بالقصد في الاستخدام والاعتدال عند الحديث والاستعمال.

إن للهواتف بالناس استبداداً وسَطْوة، ولمَّة وسَكْرة، صار أحدنا قبل نومه يُحملق في بريده وشاته، ونكزاتهوتغريداته، وحين يُفيق من نومه يصحو على رناته ونغماته، صحب الهاتفُ الناسَ في أسفارهم ورحلاتهم، وأعمالهم وراحاتهم.

ورافقهم في حلهم وترحالهم، وسايرهم بطُرقاتهم ومواصلاتهم، بل كثيراً ما يصطحب بعضُنا محمولَه أو هاتفَه إلى غرف النوم والحمامات، ناهيك عن الجوامع والمساجد حيث الصلوات والعبادات.

والحق أنه لم يَسْلَم كثيرٌ من المتدينين من فتنة الموبايل الآسرة، فها هم الذين كانوا يحملون المصاحف الورقية ببركتها وقدسيتها استعاضوا عنها مستخدمين هواتفهم ومصاحفهم الإلكترونية، ولا بأس، فالقرآن واحد لا يتغير، والمصحف حق ثابت لا يتبدل، محفوظ من قِبل الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لكنْ للمصحف الورقي لمن خَبَره وعَرَفه جلال وهيبة، له عِزة لا يسمح بالمنازعة فيها، وله استلاب يأبى المغالبةَ عليه، فقارئ المصحف الورقي يستشعر معية الله، ويتعرض لنفحاته غضة طرية، فلا إشعارات تعصف به وتغزوه، ولا نكزات تَطْرُقه وتُقلقه، ولا تغريدات تصرفه عن وجهته والتركيز فيها، أو تشوش عليه التأمل السابح عبر سوره وآياته.

لقد أضحى الجوال حقاً ضرورة حياتية، وربما خسر بعض الناس – إن نسوا هواتفهم – كثيراً من الأموال لفوات الأمر بصفقات، أو النهي عن عمليات أخريات، أو للتأخير عن مهم من الدعوات وحاسم من المواعيد والارتباطات، بل ربما عاد كثير منا من منتصف طريقه للعمل أو السفر إن تذكر أنه نسي هاتفه أو شاحنه!

لقد أسعدني في بعض المساجد عكوفُ بعض المصلين عقب صلاة الغداة)الفجر (للأذكار وأداء ركعتين بعد شروق الشمس بنحو ثلث الساعة التماساً للأجر والمثوبة.

لكن سرعان ما أحزنني أنهم قد يتركون مقرأة جماعية ناجزة بالمسجد بحجة أنهم يفضلون أداء الأذكار في أوقاتها، ثم هم أولاء يشرعون حقاً في أداء الأذكار، لكن سريعاً ما يتدخل الشيطان قبل انتهاء الأذكار في فتح أبواب من قضايا مختلفة في الدين والدنيا والحياة ليصرفهم عن أذكارهم وأورادهم وعن المقرأة التي حولهم.

والشيطان في تزيينه هذا قد يُوحي إليهم أن استعينوا بالمقاطع والتغريدات، والمقالات والفيديوهات، وهم كل يوم تقريباً يقعون فريسة لوسوسة الشيطان الذي لا يملّ ولا يكلّ ولا يزال يراوغ الكبير والصغير، والعالم والمتعلم والعابد، والأمي والجاهل والحاذق، ولا ينجو من كيده إلا من رحم الله.

إن للموبايل أهمية قصوى، كما أن له بريقاً وفتنة، وضلالاً وغواية، وعلينا أن نسأل الله خيره ونتعوذ به من شره على حذر منا ويقظة .

وللوقوع في أسر غوايته علامات:

فمن لم يسمح لزوجته أو لأولاده إناثاً كانوا أو ذكوراً بتصفح جواله فليعلم أنه من ضحايا الموبايل، ومن يُجري مهاتفاته ولا يسمعه القريب جداً منه فهو من مواليه، والذي يخجل من اطلاع الناس على حوارات شاته، أو سماع محادثاته ومناجاته فهو من أُسَارَى الموبايل وفرائسه.

يفضح الموبايل كذب الكذابين المجاهرين – في وسائل المواصلات – الذين يُخبرون من يُهاتفون بأنهم في مكان ليسوا هم فيه، كما أنه يكشف سماجة بعضهم من أصحاب الأصوات العالية الذين يبدون كأنهم اشتروا المركبة أو وسيلة المواصلات لحسابهم الخاص، ولا يتورعون في ألفاظهم وعباراتهم، وقد يؤذون آذاننا بسماع سبهم وشتمهم، أو ماجن وسادر مزاحهم.

وليس أقل منهم جُرماً أولئك الذين يُنجزون أعمالهم من لحظة ركوبهم وحتى نزولهم بصوت يسمعه القاصي والداني، دون رغبة من الناس في سماع أوامرهم ونواهيهم، وتوجساتهم وتوجيهاتهم!

القصدَ القصدَ في الموبايل وقتاً واستعمالاً، إنما جُعل الهاتف برقيةَ اعتذارٍ عن تأخير وخطأ، أو إشعاراً بدنو وصول وقرب أجل، أو صلةَ رحم ونسبٍ ودم، أو إصلاحاً بين الناس، أو تطميناً لملهوف، أو تخفيفاً لآلام مريض، أو تسكيناً لغاضب، أو تأكيدَ أمرٍ ونهي، أو تعزيةً في وفاة وموت، أو مواساةً في مصيبة وكَرْب، أو اتفاقاً على لقاءٍ ووعد، أو تقديمَ ثناءٍ وشُكر، أو إزجاءَ فَرَحٍ وتهنئة وبِشْر!

10-رحلة إلى حديقة الحيوان

يبدو أن هناك علاقة بين الطفولة الباكرة وعشق الحيوانات، واستهواء الطيور؛ ذلك أنك كثيراً ما ترى رغبة الأطفال الجامحة وتعشُّقهم لاقتناء الطيور، ومداعبة الحيوانات.

وربما يمكن تفسير هذه الظاهرة بأن كلاً من الأطفال والحيوانات تحدوهم الفطرة، فتحرك انبعاثاتهم، ورغباتهم، ومنطلقاتهم.

فالأطفال أطهار النوايا، حسنو الأهداف، نبيلو الغايات، وإن كانوا – لا شك –ساذجي المعلومات، قليلي الحَذَر والخبرات، يُحِبُّون التطلعات ويهْوَوْن المغامرات والاكتشافات.

كانت حديقة الحيوان – في الماضي – من أفضل الأماكن التي يرغب في ارتيادها الأطفال والكبار.

ليس فقط لما قدمنا من تشابه بين الأطفال والحيوانات في البراءة والمرح ونحوهما؛ إنما أيضاً لأن حديقة الحيوان كانت زاخرة بما يَسْتَلِب الألباب، ويفتن القلوب، ويخلُب الأفئدة.

فكانت الحديقة – إضافةً إلى نظافتها وتنسيقها – لها روح المتعة، وجمال الازدهاء، وروعة المشاهدة.

فضلاً عن المشاعر المتبادلة بين الزائرين والحيوانات من عطفٍ على حيوان إن أحدق به خطر، أو حام حوله أذى من بني جنسه أو حتى من البشر.

فعند الأسد ..كنا نخشى عليه من حديد الحارس المستفز لنشاطه، المستنهض لزئيره، والمستوفز لصولاته وجولاته.

وكنا في الوقت ذاته نخاف على الحارس إن كشَّر الليث عن أنيابه، أو حاول تخطي الحُجُز من الحديد والشباك.

وكانت الفرحة تكتمل بظهور أشبال الأسد وأمهم، ذلكم المشهد الذي تتعانق فيه قوى البطش القاهرة وطبيعة الأمومة الراحمة التي لا تملك معها شراسة اللبؤة إلا أن تخضع حانية أمام غريزة الأمومة، وتخشع وتذل إزاء محرابها!

وعند الفيل ..كنا نرى بديع صنع الله في ضخامة الفيل وحِلمه، ووقاره ورزانته، وأُنسه ووداعته، لم نكن نُشفق على الفيل من سَوْط الحارس فهيهات لفيلٍ ضخمٍ أن يزجره سَوْطٌ، أو يُرعبه صَوْتٌ.

بل كنا نخشى على الحارس من غضبٍ يُخرج الفيل من الطيبة والوداعة إلى الشراسة والشقاوة، ومن البراءة والمسالمة إلى الشدة والبأس، والخفة والطيش .وكان الأمل غاية الأمل أن يحظى أحدنا بامتطاء الفيل ففيه نشوة ولذة يعرفها من اعتلاه، ويقدرها من ركبه، ويلذ بها مَن استظهره، ففيها امتلاك الدنيا، ونشوة العزة، وفرحة البطولة، وأَلَق المخاطرة والمغامرة.

وعند القرود ..كنا نلمح في مساكنهم حياة البشر الأُسَريّة، فمن القرود ما تراه مشفقاً على صغيره، مداعباً لفطيمه، أو مؤنساً لرضيعه.

بل منها الأمهات التي تراها للصغار مؤدِّبة، وللأشبال محذِّرة، تُسْعد أسرتها صغيرها وكبيرها بتفلية الرؤوس في حنان، وتنقية الحشرات باهتمام، ومداعبة الظهور وحكها بلطف وأمان، في رقة معهودة مطلوبة غير مزهودٍ فيها، ولا مُتنَازَل عنها فيما بينهم.

وعند الزرافة ..كان العجب من طولها الفارِع، وخَلْقِها البارع، وبيتها العالي الواسع، وكنا ندهش أكثر من خرائطها اللافتة، ومن خطوطها المتآلفة، وأطرافها المتناسبة المتآزرة.

فالزرافة تأسر الأطفال بارتفاعها الباسق، وتخطيطها المتناسق، وودها وبراءتها وطيبتها المتناهية، ويا لحظ من أطْعَمَها، أو اقترب منها وحَنَتْ عليه بلسانها فلمسته ولامسها.

وعند البجع والبط والطيور ..ترى ألواناً من الحسن زاهية، ولوحاتٍ من الفن باهرة، فيا لروعة الألوان في تداخلها وتناسقها، وتآلفها وازدهارها، وفي كثرتها وتماوجها.

إنها آياتٌ من الجمال ناطقة، وبيناتٌ من السحر متناسقة، يتخلل ذلك كلَّه بديع أصوات القَمَاريّ والبلابل، وتغريد العصافير والحَمَائم.

هكذا كانت الحديقة وَحْدَةً واحدة من النظافة والحُسن، وجنة مُزدانة بالروعة والسحر، يكسوها شجر عتيق كأنه شاهد عِيَان على تدشين الحديقة وانطلاقها.

وكأنه حارس يقظان إذا ما غَفَلَ أو نام الحراس من بني الإنسان، وكأنه أيضاً يبكي ويأسى على ما آلت إليه حالها الآن.

وكانت الخضرة تلفُّ الحديقة وتكسو جوانبها وحوافَّها، تزدهي بها أركانها وجزائرها، خضرة من حشيش ناضر، وزهر مُورق، تحفُّه من أرجائه سِلال للقُمامة مرتفعة ثابتة لها فتحات سُفلية لتفريغ محتوياتها بحيث لا يعلق منها شيء، ولا تُخلِّف رائحة أو ريحاً.

وكانت هذه السِّلال تحفظ للحديقة حسنها ولا تجرح منظرها .كما كان للحديقة عطر ذاتيّ مبهج وعبير، ونسيم خاص منعش عليل.

كل ذلك كنا نلمسه واقعاً مادياً ونعيشه، كما كان منه ما يُضفيه علينا الخيال المفعم بالروح الممزوج بالنفس لا بالحس.

وكان الزائرون بسطاء في مظهرهم، أنقياء في مخبرهم، إن فاتهم الغِنى والثراء فلم يفتهم الأدب والحياء، ولم يكن ليعوزهم الوعي، ولا لتفوتهم المحافظة والمسؤولية.

فليس يصدر عنهم صوت مزعج متحدٍّ راحةَ الناس وسكينتهم، ولا خروج على أدبٍ وعُرف بجنوح لغواية، أو شروع لتبجح بشهوة أو رعونة.

وليس هناك انزواء وتخفٍّ يُطعن ويُتهم بين عاشقيْن أو مخطوبيْن، ولا سلوك شائن، ولا فعل فاضح، الجميع جاء للترويح والسكينة والراحة، لا لخطف شهوة عارمة، ولا لقنص رغبة متأججة.

جاء الجميع بحكمة الواعين، وسلوك المتحضرين، ومن وراء ذلك كله إدارة للحديقة حازمة حاسمة ومُتابعة، مُوجِّهة ومُرشدة، وأحياناً قليلة كانت زاجرة مُعاقبة.

هذه حديقة الحيوان التي كنا نعرفها ونألفها، أما الآن فبنَّا وبانت، وتغيَّرنا واستحالت، وآضتْ إلى ما تعرفون وتنكرون.

ليتَ شِعْرِي هل من يدٍ قوية أمينة عازمة تعيدها سيرتها الأولى فنوناً من البديع والسحر، وآياتٍ من العظمة والجمال، ولوحاتٍ من البراعة والافتنان.

لقد كانت حديقة الحيوان العروسَ المزدانة الآسرة، فآل أمرها إلى عجوز وسوق كاسدة، شوهاء مهيضة.

ألا من رجل رشيد يُبعد عن الحديقة أشباح وشائعات الهدم لبناء أبراج وناطحات سحاب على أشلاء أفدنتها وأطلالها.

ألا من أُناس يحفظون علينا تراثنا وذكرياتنا، ويمنعون ضياع سبل الهواء النقي يسري من حناياها، وينقذون أثارةً باقية من ظلال وارفة بين ربوعها، فإنهم إن يفعلوا ذلك يحفظوا لمصر رمزاً من رموزها، وشرياناً نابضاً من عروقها.

عسى الله أن يُعيد لمصر ريادةً تجمع لها بين الأصالة والمعاصرة.

11-حماتي لم تمت

بقدر ما تصور الأعمال الأدبية والفنية الأم واحة للأمن، ومصدراً للعطاء، ونبعاً فياضاً من الدفء والحنان، ورمزاً للإيثار ونموذجاً لإنكار الذات والتضحيات.

ولا شك أن هذا كله من عطاءات الأمومة بل هناك ما هو أكثر وأعمق مما تمنحه الأمهات أولادها وأُسرها، بقدر ما نجد تشويهاً لشخصية الحماة، ومسخاً لإنسانيتها على مستوى الأعمال الفنية المطروحة، والرؤى الفكرية المقدمة.

وسواء أتتنا هذه الموضوعات الفنية في قوالب مرئية من الملهاة والكوميديا، أو صيغت ألواناً مُشَاهدة من المآسي والتراجيديا، أو بُثت في أعمال إذاعية درامية.

ومن أسف أننا لا نُلفي في تلك الأعمال جميعها إلا تلكم الحماة الشريرة التي تسعى حثيثة جادة ليتجرع زوج ابنتها الكؤوس المترعة من التعاسة والشقاء والحزن.

إن الحماة – في تقديري – هي إنسانة لها قلب الأم الرؤوم، وعطف الوالدة الحنون، وصدر المربية الواسع الرحيب.

فمن الغبن القعود بها عن سامي رسالتها كأم جديدة، وجَدَّة وشيكة، ومن غير النَّصَفة بها التنكر لها، والانزواء بها في ركن ضيق يمثل مصدر تعكير الصفو والتحريش بين الزوجين.

والحق أن آفة الرأي ليس الهوى والتعصب فقط، وإنما من آفاته التعميم والمبالغة في إلقاء الأحكام وفرض التصورات المُسْبقة مستخدمين في ذلك أدوات التعميم ووسائل المبالغات من كلمات :كل، وجميع، وكافة.

القرآن الكريم يرشدنا في موضوعية وتجرد بالغين ألا نعمم، بل نقدِّر نِسَب الاستثناءات عند إطلاق الأحكام} وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ من أن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ من أن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ{، وقوله} :وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ {وقوله} :وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ.{

وكما أن الأصل في الأم ما ذكرنا من بث الجود والكرم، ودفق الخير والنعم، وصناعة التضحيات والمُثل؛ فإن هناك أمهات قلائل قد يعزبن عن هذا الأصل، ويجنحن إلى ما نطالعه في أخبار الحوادث من غرائب وانطماسات، وعجائب وانتكاسات.

وكذلك الأمر نفسه بالنسبة للفكرة السائدة المستقرة – خطأً – في أذهان كثير من الناس عن الحموات وشرورهن ومكائدهن.

أدهشني أن تتجسد في امرأة أمية من عُرض النساء تجمعني بها علاقة النسب ووشيجة المصاهرة، معاني الكرم، وروح الإيثار، وحب العطاء، ومساعدة المحتاجين.

والتمتع ببريق السعادة في أعين ذوي الحاجات بعد نوالهم، على نحو خوَّل لهذه المرأة سعادة غامرة كانت تنسكب من وجنتيها حين تضحك في براءة الأطفال وفطرتهم.

بل كفل لها طيب مسلكها أن تحيا حياة القناعة والرضا والسعادة، فكانت بمنأى عن الحزن والضيق والشقاء، بعد أن أدمنت على إكرام الضيف، وحمل الكَّل، وإعانة كل ما تستطيع على نوائب الحق والدهر.

هذه المرأة الأمية محور حديثنا كان منهجها مع الخلافات العائلية بين بناتها وأزواجهن كما حلا لها أن تعبر" :التعشيش لا التطفيش "بمعنى الصبر والحلم، والمغفرة والصفح، فإنما هي بعض حماقات ونزوات الأزواج التي سرعان ما تمر كسحب الصيف الخجلى.

تجاوزت المرأة في عطائها دائرة الأسرة الضيقة، وانداحت في جنبات قريتها، بل تخطتها إلى المدينة، ولا أحسبها قد نجحت في حياتها فقط من خلال محافظتها على صلوات وطقوس وشعائر، على أهميتها، ولا إدمانها على ما كانت تتنفل به متزلفة إلى ربها من صيام بالنهار، أو قيام بالليل.

بل أظنها تبوأت منزلة القرب من القلوب، والحب من النفوس، بسبب بالغ انشغالها بمساعدة الآخرين، وإسعاد البائسين، والتخفيف من جراحات المكلومين.

حدثتني أنها اعتادت في صباها فور حلب بقرتها باكر كل صباح أن تتصدق بقدر من اللبن، قبل أن تَقْربه أو تَطْعمه، وذات مرة سارع أحدهم منتهراً السائل الطالب للبن في الوقت الذي كانت تحلب فيه بقرتها.

وإذا بالبقرة بعد انتهاء الحلب تضرب بقدمها وعاء اللبن فتريقه على الأرض، تعجبتْ الفتاة وحزنت من أمر من البقرة لم تألفه، وسلوك لم تعتده، ثم أدركت السبب بعد أن أخبرها الذي نهر السائل بفَعلته.

كانت لا تحتفظ إلا بثوبين أحدهما ترتديه والآخر يجف على منشره، أو يقبع في خزانته .وكانت كلما اشترت ثوباً جديداً أو أُهدي إليها ملبس أو رداء تصدقت فرحة مسرعة بما كانت ترتديه.

وقد دار حديث بيننا عن آمالها بعد أن عادت متمتعة بعمرة رمضانية، فقالت ما فحواه :أستشعر الله معنًى في حركاتي وسكناتي، وأناتي وخلجاتي، لكني أتوق إلى تقبيل يديه فهل لهذا من سبيل؟

داهمها المرض وأصيبت بكسور وأجريت لها عملية جراحية ألزمتها السرير الأبيض قرابة شهرين.

وفي لحظة خاطفة من الزمن كأنها لمح بالبصر أو هي أقرب صعدت روحها في معراج ذي سكينة إلى بارئها ..في الوقت الذي كان يتساءل أبناؤها إثر أن قضت مباشرة :من منكم نثر هذه الرائحة الطيبة بالحجرة؟

فلم يكن من مجيب أو فاعل غير قطرات متحدرات من العَرق الْتَمعت على جبينها الوضيء أرشدتنا عن مصدر الطيب، ومكمن العطر.

لم أكد أصدق بجلال الرائحة إلا حين حملت إليَّ زوجتي ذلك الفراش الذي كانت ترقد حماتي عليه وفيه كانت تتضوع رائحة خفيفة المحمل، ملائكية الطهر، ربانية المصدر.

من بعد وفاتها كلما سرنا في طرقات قريتها زائرين لها في قبرها صادفنا من نعرف ومن ننكر ممن يدعون لها بالرحمة والمغفرة.

فمن قائلة :هذا ثوبها الذي أرتديه، وقائلة :هذا خمارها الذي أصلي فيه، وقائلة :رحمها الله منذ أن ماتت لم أطعم اللحم، أو أتذوق الفاكهة؛ أدركت ساعَتَئِذٍ أن حماتي لم تمت ولكنها ارتقت!

12- جزيرة القطط

مع إيابي من عملي عند الثانية والنصف بعد الظهر من كل يوم، يسترعي نظري في جزيرة طريق النصر بين ميدان الساعة وعباس العقاد، مشهد يكاد لا يتخلف ولا تخطئه العين، مشهد يسر النفس، ويثلج الصدر، ويقر العين.

ذلكم أن رجلاً تعاهد قطيعاً من القطط بالرعاية والإطعام تراه يحمل حقيبة بلاستيكية أو حقيبتين، وحين تلمحه القطط تتوافد عليه فرحة مبتهجة دون لغط أو تعدٍّ.

وهو يقابل نضارة القطط الراغبة بابتسامة نابعة من فؤاده ترتسم على محياه، وتراه في ود وحبور يُخرج للقطط قطع الجبن المثلثة، وعُلب التونة الوفيرة مع الخبز الطازج والماء.

استوقفني في مشهد جزيرة القطط قلب الرجل الحاني المفعم بالإنسانية، الذي تشعر معه أنه تجاوز الإحسان إلى الناس إلى الإحسان إلى الحيوان، في عمل قائم دءوب، وهدف ثابت لا يغيب، لا يحجبه عن مراده حر الصيف اللافح، ولا برد الشتاء القارس، وهو لا يعبأ بامتعاض بعض المارة أو حتى بإعجابهم .وأدهشني أيضاً ثقة القطط برزقها فلا يجهل بعضها على بعض، ولا يستجدي بعضها بمرض أو آفة، فلا ترى بينها ذكراً متصدراً باستقواء، ولا أنثى مستعرضة بتكسُّر أو خُيلاء.

بل حين يلمح الرجل قطاً متردداً في الإقبال أو هرة خجلى يعاجلهما بنظرة ودٍّ مشيراً إليهما بالانضمام ..ثم ناجيت نفسي هامساً :ليت الشعوب تثق بربها ثقة القطط بمُطعمها، وليت الحكام ترحم رعاياهم رحمة الرجل بالقطط!!

13-الوزير الإنسان

في مستهل التسعينيات شرُفت بالتلمذة على قامات سامقة في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، حيث درَّس لنا كوكبة من العلماء، ونخبة من المفكرين والأدباء، الذين أخذوا من العلوم والفنون والأخلاق بحظ وافر.

ومن أبرز هؤلاء الرواد أ.د أحمد هيكل وزير الثقافة الأسبق رحمه الله، وهو أستاذ الأدب وتاريخه بالجامعات، كما أنه أديب متدفق الشاعرية، جمع الله له بين ألق الشعر، وعذوبة النثر، وحلاوة المنطق، وإنسانية المنطلق.

اختلف د .هيكل في زهرة شبابه إلى صالون الأستاذ العقاد الأدبي، فاقترب من العقاد حيث عمق الفكر، وجزالة اللغة، ورونق الشعر، ونبل الأستاذية.

نهل د .هيكل من موسوعية العقاد، واغترف من علومه وفنونه، وأصول فكره العلمية والأدبية.

وأضفى على ذلك كله بصمته وشخصيته وميسمه الإنساني لا سيما أنه كان موهوب الشاعرية، فياض الأحاسيس، جاد التلقي، عاشقاً للعربية.

كان د .هيكل شعلة نشاط مضيئة، وجذوة عمل تواقة، اتصلت أسبابنا به بعد أن ترك وزارة الثقافة.

فكان يؤم الكلية أستاذاً متفرغاً يسير في دهاليزها ليصل إلى القاعات حيث محاضراته القيمة، وأمسياته الشاعرة، وندواته الثقافية.

لا أذكر أنه تأخر أو تغيَّب عن محاضرة ..بل ذات مرة انقطع التيار الكهربائي أثناء محاضرته لنا فإذا به ينهض ويسير بين صفوفنا جاهراً بصوته المتدفق المنطلق ليُسمع القاعة كلها؛ حرصاً منه على تعليمنا وتثقيفنا في حب لرسالة العلم، وإخلاصاً لقيمتي الوقت والعمل.

وفي زمن كان متوسط ثمن الكتاب الجامعي فيه حوالي سبعة جنيهات، وفي وقت ألمح فيه بعض الأساتذة بضرورة شراء كتابه.

بل صَدَع أحدهم متوعداً بحتمية خلو المكتبات من مصنفه وإلا ذاقت الدفعة كلها وبال أمرها وكان عاقبة أمرها فشلاً ورسوباً.

في هذا المناخ المادي رأينا د .هيكل يُكثر من إهداء كتبه، ومن التصدق بها، بل أبرأ ذمتنا من مغبة تصوير الكتاب أو حتى السطو عليه، كما حلا له أن يعبر!

ولن أنسى مشهداً إنسانياً حضارياً زادني حباً وتيهاً لشخصية د .هيكل طيِّب الذكْر، حيث إنه رمق طالباً كفيف البصر يتعثر في خطواته باحثاً عن قاعة درسه، فإذا به يُهرع مهرولاً إلى الطالب يسأله في ود عن وُجهته وغايته ليوصله بنفسه لمبتغاه في أُبوّة مُشفقة، وعاطفة إنسانية نادرة.

أثرى د .هيكل المكتبة العربية بمصنفات عدة، ودواوين شعرية، وأعمال أدبية، وسلسلة محاضرات وخُطب عن جوهر الإسلام، أسسه ومبادئه، غاياته

وأهدافه؛ ما أثر في قادة الأندلس حين كان معاراً إليها، فقرأوا عن الإسلام بعد أن حببهم د .هيكل فيه، وقربهم منه سلوكاً وعملاً، وثقافة وعلماً.

رحم الله زماناً كانت مصر فيه تُولّي أمثال د .هيكل وزيراً للثقافة، والشعراوي والأحمدي للأوقاف، وجاد الحق للأزهر، ورشدي للداخلية، وأبو غزالة للدفاع، والجنزوري للتخطيط، وجويلي للتموين.

ورَوَّح الله أرواح قادة كانوا يسعون لأن تكون مصر منارة للعلم وقِبلة للإيمان، وشاه وجه كل من أراد بها أن تكون مرتعاً للجهل والفقر، أو مستنقعاً للإفك والظلم، أو مباءة للهوان والطغيان!

14-النابلسي والأطرش ..صداقة حتى الموت

لا ريب أن الله سبحانه وتعالى يُحب من عباده الغني الكريم، إلا أن حبه للفقير الكريم أشد.

وحين تتواصل أمارات الكرم بطبائع الوفاء يستحيل المرء مَلَكاً يسير على الأرض، يحبه الله ومن ثم يحبه الناس لآثاره الطيبة، ومواقفه النبيلة، ونفعه المتعدي، وخيريته المتدفقة.

ومن الغبن أن ننظر إلى أخلاقيات الوسط الفني برمته نظرة ازدراء وتنقّص، خاصةً أن الفن جزء من الشاعرية، والشاعرية تكون جياشة مرهفة عند أصحاب القلوب الرقيقة وذوي الأفئدة الغضة الخضراء.

لقد كانت الصداقة من المستحيلات عند العرب؛ لذا قالوا :الصديق ولو في الحريق .ومن الصداقات الفنية العميقة تلكم الصداقة أو الأخوّة التي جمعت بين الراحلين" :فريد الأطرش"، و"عبدالسلام النابلسي."

هذه الصداقة التي كشف عن بعض جنباتها" النابلسي "في برنامج" :نجوم على الأرض .."حيث أعرب عن أنه تعرض في مقتبل حياته الفنية لأزمة صحية ألمّت به وخلّفته طريح الفراش في مستشفى خاص طيلة أربعين يوماً.

زاره خلالها عمالقة الفن أوانئذٍ أمثال" :يوسف وهبي"، و"محمد عبدالوهاب"، وغيرهما ..لكنّ فناناً واحداً ظل معه ولازمه، ولم يكن من الزائرين العجلين، ذلكم هو" الأطرش."

شُفي" النابلسي "من مرضه العُضال، وأراد أن يغادر المشفى إلا أنه لم يكن يملك ما يسدد به فاتورة تكاليف المستشفى وأجر الطبيب المعالج.

وكان" النابلسي "رغم فقره مرهف الحسّ، عزيز النفس، لم يستجب لدعوات واهية من بعض كبار الفنانين الذين لمّحوا له وعرضوا عليه المساعدات على استحياء.

وكان" النابلسي "يعلم سلفاً أن صديقه المقرب" الأطرش "يتعرض لضائقة مالية عابرة أحدقت به، وجعلته يعجز عن دفع إيجار منزله في ذلك الإبان؛ لذا لم يتوقع" النابلسي "المساعدة من" الأطرش "في ذلك الوقت على الإطلاق!

لكن" الأطرش "انطلق فاقترض مبلغاً كبيراً من المال، لا ليسدد به إيجار سكنه، وإنما وجّهه لسداد كُلفة المستشفى وأتعاب الطبيب الذي عالج صديقه" النابلسي."

واستوقفني أن" الأطرش "لم يفكّر في مُصيبته ولا بلواه، وإنما كان همه استنقاذ صديق عمره من مُلمّته، وتخليصه من ورطته، ومساعدته في مِحنته.

كما بهرني أيضاً أن" الأطرش "لم يعرض مساعدته بكلام معسول أجوف، ولا بأقوال مُزدانة فارغة، بل كانت مساعدته عملية صامتة تحدّثت آثارها عنها ولم يتحدث بها صاحبها!

ثم دارت الأيام دورتها وافتقر" النابلسي "في أُخريات سني عمره كما افتقر في باكورتها، ودهمه مرض القلب الذي أخفاه عن الناس ليحافظ على استمرارية

عمله في الوسط الفني الذي يقلب ظهر المجن، تماماً كسوق النِّخاسة، لمن أوهنه مرض، أو هَوَى به كِبَر، أو أفل به نجم، أو قعد به اهتراء جسد، واشتعال شيب!

وأدهشني أيضاً في مرض" النابلسي "موقفان يدلان على شعوره الراقي، وحسه السامي؛ ذلك أنه طَفِقَ إن هاجمته آلام مرضه المبرّحة يفتح صنابير المياه من عند آخرها لتغطي على صوت عذاباته وتأوهاته؛ كي لا يراه الناس في حالة تستجدي عطفهم وحدبهم عليه!

وحين آنس" النابلسي "دنو أجله في أخريات عمره كان لا يغلق على نفسه الأبواب بالمفاتيح، بل كان يضع المفاتيح من خارج الأبواب.

هذا، قد وافت المنيّة" النابلسي "مُعدِماً مسافراً إلى لبنان لتصوير بعض أعماله، وكان" الأطرش "صديق عمره موجوداً حينئذٍ في مصر، وبمجرد أن عرف" الأطرش "بخبر وفاة صديقه من الصحف في 5 يوليو 1968 التي حدثت على إثر أزمة قلبية حادّة؛ اتصل على الفور بأخيه" فؤاد الأطرش " ليقف بجانب زوجة" النابلسي "مادياً، ويُشرف بنفسه على تشييع الجنازة وقضاء ديونه، ثم ما لبث أن خرَّ" الأطرش "بعدها مريضاً حَزَناً على وفاة صديق العمر!

وإن تَعْجَب فعجبٌ لصداقة فنية تحلِّق بصاحبيها ضاربة نموذجاً أسمى في الصداقات الإنسانية، لا سيما أن" النابلسي "كان مسلماً، أصوله فلسطينية،

ومولده بلبنان، بيد أنه تألق بمجده الفني في مصر، حين جاء إلى أزهرها الشريف في سن العشرين، فحفِظ القرآن الكريم في رحابه، وتعلم اللغة العربية بين أعمدته وأروقته؛ حتى صار أديباً فنياً يكتب ويؤرخ منذ عام 1925 بالصحافة الفنية والأدبية في أكثر من مجلة، كان من أبرزها :مجلة" مصر الجديدة"، و"اللطائف المصورة"، و"الصباح"، إلا أن أضواء التمثيل اختطفت خفيف ظله، وبديع فنه، ورائع كوميدياه؛ فتألق نجماً في سمائها حتى وصل للبطولة المطلقة في بعض الأعمال.

15-لصوص ..لكن رحماء

إن لامتهان النشل دوافع وأسباباً كثيرة، ربما يُعزى بعضها إلى التنشئة الأولى والتربية، وبعضها قد يعود إلى أسباب أسرية، ودواعٍ بيئية، وجذور نفسية.

ويبقى بعضها الآخر مرتبطاً بكل ما سبق من عوامل، إضافةً إلى عناصرَ أخرى مهمة مثل :الفقر، والمرض، والجهل، والكسل الذي يبدأ بالتسول والاستجداء، وقد يفضي إلى احتراف النشل والاستراق.

يبدو أن هنالك شروطاً ومواصفات أساسية لا بد من توافرها في الناشطين بعالم النشل والسرقة، لعل من أهمها بعد خفة اليد وسرعة الحركة :خفة الوزن، وإجادة القفز، وإتقان العَدْو، وسرعة البديهة، وحسن التخلص، وإجادة السباحة، ومهارة قيادة المركبات بأنواعها.

إن هذه الطُّغْمة من الناس – أعني النشالين – إنْ جمعها امتهان السرقة واحترافها؛ فإنه يميز بين أفرادها فلسفة توجههم عند اختيار الضحية، وتحديد مكان وزمان القنص، وحتى بعد النجاح في عملية النشل والاستحواذ على المسروقات.

يخرج النشال لمقارفة جرائمه مجدداً حين ينفد رصيده المالي أو يكاد، هذا إن كان يعمل لحساب نفسه لا ضمن منظومة أو عُصبة يرأسها كبير لهم فيدفع بهم لممارسة السرقة ربما لفترتين صباحية ومسائية.

بدهي أن نشالي الموظفين – خاصةً – يعلمون أن أفضل أيام حصادهم تكون مع نهايات وبدايات الأشهر الميلادية؛ ذلك أن الشركات والمؤسسات غالباً ما تدفع رواتب العاملين في هذا التوقيت، إضافةً إلى أنه موسم صرف وقبض "الجمعيات "المبرمة سلفاً.

ومن المقرر لدى النشالين أن توخي أوقات الذروة في المواصلات) مترو كان أو قطاراً أو حافلة(، صباحاً وبعد الظهيرة، أساس يعرفه مساعدوهم وصبيانهم وذراريهم، فضلاً عن صعاليكهم وأعضائهم العاملين والمتقاعدين.

يصعد النشال من الباب الخلفي للحافلة، أو الأمامي في حال الازدحام الشديد، ثم يقف هُنيهةً، يتفرس خلالها ما استطاع من وجوه وملابس، ثم يحدد سريعاً ضحيته التي تغريه بحافظة نقود مُشرفة من جيب خلفي، أو بجيب منتفخ يشي بموبايل، أو يفوح برائحة أوراق نقدية، أو بوقفة راكب مناسبة تسمح بإجراء مراسم النشل عليه.

وكم يساعد النشال في نجاح جريمته نشوب حوار ساخن بين الضحية وآخرين، أو إغفاءة من سبات أو نوم لراكب مُرهق وسنان.

ولطالما جذب نظر النشال حقيبة بلاستيكية أو جلدية تسيل لعابه بما تخبئه؛ فإن استعصتْ معه على الفتح والتناوش اليدوي، أعمل معها مشرطه إعمال جراح ماهر بمبضعه في جسد مريض قد استجاب لبأس التخدير وسلطانه.

يُفضِّل النشالون ذوي الملابس الفضفاضة، جلاليب كانت أو غيرها، حيث تُيسر لهم إتمام جرائمهم، فتجوس أصابُعهم الذهبية في مجال رحب متحسسةً ما في الجيوب من مكنون ومحفوظ دون لمسٍ للبشَرة أو مسٍّ للأجساد.

ويضيق النشالون ذرعاً بأصحاب الملابس الضيقة، خاصة ممن لا يحبون حمل حافظات النقود، ويمسكون هواتفهم بأيديهم، على حين يودعون هوياتهم أعلى جيوب قمصانهم بحيث تكون محل نظرهم وقِبلة رؤيتهم.

ولا تعجب إن أخبرتك أن سرقة المرأة أشد وطأة على النشال من سرقة الرجل؛ لأن السارق لكي ينجح في سرقته لا بد له من دنو من الضحية، والمرأة المصرية بطبيعتها لا تسمح بمجرد الاقتراب منها فضلاً عن دنو يسمح لنشال بسرقتها، أما إن كانت السارقة امرأة كان أهون عليها سرقة الرجل أكثر من سرقة النساء!

سأحاول هنا الوقوف أمام نفسية النشال؛ للتعرف على جنباتها، وفلسفة السوء والشر فيها، عسى أن نجد أثارة من خير في أعطاف هذه الشخصية المعقدة اجتماعياً، والمطاردة أمنياً، والمبغوضة إنسانياً.

إن كثيراً من النشالين يتجردون من كل أثر لإنسانيتهم، فبعد أن يحقق المجرم منهم هدفه وينجز مراده؛ بنشل النقود، أو الهاتف، أو الحُلي، يحتفظ بهُوية المسروق وأوراقه ليتخلص منها بإلقائها خارج مسرح الجريمة، وقد تبلغ به شقاوته أن يُشعل فيها النار، أو أن يرمي بها في ترعة أو نهر.

ومن غرائب ما حُكي لي اعتزاز بعض النشالين بسرقاتهم، فعلى حين كان يعاني أحد الضحايا من مرض شديد ألمَّ به وكان مستقلاً لميكروباص، جلس اللص بجواره، وكلمح بالبصر أو هو أقرب انتشل اللص هاتف المريض ثم نزل من الميكروباص.

عاد المريض المسروق إلى بيته فإذا به يتحسس هاتفه فلم يجده، فطلب إلى زوجته الاتصال بالهاتف، فرد اللص قائلاً :نعم ..خير؟

فقالت زوجة المريض :هذا تليفون زوجي قد وقع منه ربما في الميكروباص، قال لها في وقاحة متبجحة ممزوجة باعتزاز وفخر :يا ماما، هذا كان هاتفَ زوجك، ولم يسقط منه ولم يقع، زوجك سُرق يا هانم!

على حين نرى بعض النشالين لا يزال يحتفظ بشيء من الإنسانية ووخز ضمير؛ فإن هو أتم النشل وأنجز السرقة، تراه يبادر بإلقاء ما لا يخصه من غنيمة، فلا يجمع على المنشول موتاً وخرابَ ديار!

وهناك ثلة من النشالين يكادون يُحرِّمون على أنفسهم سرقة المرضى المراجعين بأوراقهم للمستشفيات، كما أن من هؤلاء النشالين مَن يتورع عن نشل ذوي العاهات حتى لو سنحت الفرص بسرقتهم؛ وذلك لأثارةٍ من رحمةٍ لا تزال تضطرب في قلوبهم وتختلج بصدورهم تحول بينهم وبين ارتكاب جرائمهم مع هؤلاء المبتلين من الناس!

وبعد ..فإن بعض النشالين – وإن أمضوا جرائمهم – يبدون أكثر رحمةً من أطباء يتاجرون في الأعضاء، أو يستلونها خلسة وغيلة، أو ينشلون الأنفس والأرواح بالإجهاض والإهمال وعدم المبالاة.

ولعل من لصوص" المَحَافِظ "من هو أقل شراً من مهندسين ومقاولين ينتهبون مقدرات المنشآت، ويجورون على مكوناتها من الحديد والأسمنت، أو يبالغون في ارتفاع أدوارها، أو يرتشون لإصدار رخصها، ثم يتورطون بعد ذلك آثمين في تصدعها وربما في انهيارها بَغتة.

ومن النشالين – كذلك – من هم أقل جُرماً من معلمين يقهرون تلاميذهم وطلابهم جسدياً، ويؤذونهم نفسياً؛ لأخذ دروس أو مجموعات تقوية مقابل الحصول على درجات غير دقيقة ولا واقعية.

ومن اللصوص من هم أدنى جريرةً من قادة ومديرين، ورعاة ومسؤولين، ونجوم وإعلاميين يئدون الحق، ويستحيون الباطل؛ ويجعلون رزقهم أنهم يأتفكون؛ استبقاءً للكراسي والعروش، وإمداداً لواسع البطون والكروش!

16-مراكز قوى لا سادات لها

غالباً ما يركب المصري الميكروباص مضطراً للذهاب إلى عمله أو الإياب منه، أو لقضاء حاجة أو مصلحة معينة، لا سيما مع الغلاء الذي أصاب كل شيء في حياة الناس؛ إذ لم يعد امتلاك السيارات الخاصة حتى المتواضعة منها متاحاً ولا مجدياً ولا اقتصادياً لمحدودي الدخل.

ولم يعد بمقدور كثيرين استئجار التاكسي؛ ما يضطر معه الناس إما إلى ركوب حافلات هيئة النقل العام التي ربما ربت أسعارها على أسعار الميكروباص، أو استقلال الميكروباص غاضين الطرف عن سائقه ومحصله، وإن كانوا لن يستطيعوا تجاهل نبرة صوتيهما، ومعجم لهجتهما، ولا وقاحة إيماءاتهما، فضلاً عن هابط ما يستمعان إليه من لغو وعبث!

جباية على السائقين

بعد استقلال الميكروباص ودفع الأجرة، يجابه السيارة شخص أن تسمع به خير من أن تراه، يُوقف هذا الشخص السيارة ويطلب من السائق إتاوة لا مبرر لها، وربما بلغت هذه الجباية التي سعَّرتها مراكز القوى قيمة أجرة راكب من مجموع راكبي السيارة.

على الرغم من تصنُّع عدم التعاطف مع السائق لما قدمناه، إلا أن موقف البلطجة على السائق يؤذي مشاعر الأحرار، خاصةً أن هذا المبلغ الذي يدفعه السائقون مجبرين، لا يصبُّ في تأمين أو معاش لهم، ولا يجدون أثره خدمةً في طريق، أو تسهيلاً في إجراء، أو إنقاذاً ومؤازرة في كارثة.

جراج بالإتاوة

يواجه أصحاب السيارات الملاكي إتاوة أخرى مقنَّعة، تخرج والتسول والشحاذة الباردة من كهف واحد، ففي عُرض الطريق، أو في تضاعيف شارع، أو في حنايا ميدان، أو في أرض الله الواسعة من أي مكان يريد صاحب السيارة أن ينزوي بها راكناً لها لأي سبب بدا له، مع مراعاته ألا يشغل طريقاً، أو يقطع مروراً، أو يعرقل حركة سير.

إذا بشخص يخرج من باطن الأرض أو من خلال فجوة بين سيارتين، يُظهر عَنوةً مساعدة صاحب السيارة في ركنه لها، وبذلك يوقِّع هذا البلطجي بصمة الحضور، وإذا هَمَّ صاحب السيارة بالمغادرة ترى الشخص نفسه قد ظهر ثانية لبصمة الانصراف؛ ما يضطر معه صاحب السيارة أن يعطيه نحو خمسة جنيهات، وإلا سمع منه ألفاظاً يفهم بعضها لكنه– يقيناً –لن يفهم بعضها الآخر قبحاً ونبواً وتسفلاً إن هو طال به المكوث قليلاً!

شِلل القطاع الخاص

عملت زهاء ربع قرن ببعض المؤسسات والشركات الخاصة، ومما لفت نظري خلال هذه السنين، أن المؤسسات الخاصة بها ما يشبه سلبيات القطاع العام والحكومي من المحسوبية، وشراء خواطر المعارف، وأفراد الشلل والمقربين.

من بين هؤلاء أشخاص يتعاملون مع غير شلتهم بشيء من عدم الاحترام الذي يجب أن يسود بين زملاء أي مؤسسة أو شركة، آمنين مغبة المساءلة ونتائج التحقيقات، ربما لقربهم من بعض أفراد الإدارة العليا.

صادفت واحداً منهم) أ.ر (كان يعمل بشؤون الموارد البشرية، شاب تتدلى من عنقه سلسلة فضية في عُنجهية وصلف وكبر، لا يرقب في محدثه من غير شلته لا علماً، ولا ثقافة، ولا زمالة، ولا حتى كبر سن.

يتحدث من عَلٍ في عبوس غير ناظر لمن يحدثه، باختصار بعد لقائك بهذا الكائن لمرة واحدة ستبتهل إلى الله ضارعاً ألا يجمعك به لا في دنيا ولا أخرى، ولا بجنة ولا نار!

وهناك شخص آخر) م .ش (هو صنو ل) أ .ر (سابق الذكر، إلا أنه يعمل بالصيانة والسوفت وير، هذا الشخص تركيبة نفسية غريبة يُصر على إطلاق لحيته) خَنْفَسَةً(، وهو لا علاقة له لا بسُنة ولا تسنن، فهو مع الأسف لا يصلي حتى في شهر رمضان الكريم.

بدأته كثيراً بالسلام كما هي حالي دوماً مع سائر الناس، لكني ألفيته لا يبدأ أحداً بسلام من خارج شلته، وعالجت ذلك سنين عدداً فقد مَرَّ) م .ش (بمواقف توجب له التهنئة والمواساة والعزاء.

فكنت في طليعة المبادرين بالمباركة على نعمة الولد، ومن المواسين حين تعرض لحادث، ومن المعزين حين فقد والده، وحسبت أنه قد يتغير على

الأقل من جانبي، إلا أنه بعد هذا كله لا يزال يتخبط في ضلاله القديم، وسلوكه المعوج غير السوي ولا القويم!

إن كلَّمه أحد من خارج سربه في مشكلة بجهاز رد عليه) م .ش (وهو يسير، فلا يتوقف للكلام معه، وإن دخلت عليه مكتبه قبل أن تطلب مساعدته يقول لك :أمهلني نصاية) نصف ساعة (وسآتيك، أو أنا مشغول وسأمر عليك لاحقاً.

ثم هو غالباً لا يأتي ولا يلبي؛ فإن ضيقت عليه الخِناق، قال :حاضر، سأنتهي مما بين يدي وأوافيك؛ فإن نظرت لما بين يديه من مهام لحت بشاشته فيلماً من أفلام الأكشن الأجنبية!

أدركت – أخيراً – أن) م.ش (هذا، لا يصلح معه تواضع ولا ود ولا معروف بل هو قمين بكل تجاهل وإهمال، جدير بكل إغضاء وإغفال، وكيما تتعايش معه وأمثاله في منظومة العمل لا بد أن ترسل إليه إيميلاً رسمياً بما تحتاج إليه من حل لمشكلة على أن تضع بالإيميل مديره ومديرك والمدير الإقليمي إن وجد، ساعتها قد تتحرك قدماه مع تأفف، وتبرم، وسخط، وضيق!

إلى كل من بيده الأمر، أدركوا بلدنا الحبيب من سطوة مراكز القوى، واضربوا بيدٍ من حديد على رؤوس البلطجة وأذنابها بكل موقع وقطاع.
أعلم أن التغيير صعب وطويل طريقه خاصة في البدايات والانطلاقات، لكن وعد الله لائح مشروط لمن اعتزم التغيير وشرع فيه} :إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ] {سورة الرعد :من الآية.[11 :]

١٧ التدخين

هناك بعيداً ..في أيام الصبا الأولى ومراتعه الوارفة، وساعات الطفولة المبكرة اللاهية، وفي ظل صحبة غير رشيدة ولا واعية؛ بمنأى عن الدفء الأسري، تُوقَد النار لإشعال أعقاب السجائر المطروحة أرضاً والمستعملة.

بعدها ..في فراغ مشبوب خالٍ من الفكر والعمل، وأوقات من المرح المتأجج العابث والفتوَّة العارمة، وغفلة من ضمير ومراقبة؛ تُشعَل أعواد الثقاب باللفائف الفارغة والمعبأة؛ إمعاناً في اللهو، واستمراءً للهزل، واستقصاءً لآخر معاني المتعة الراغبة، والشهوة غير المسؤولة ولا العابئة؛ وذلك بخوض التجارب الشَّمُوس حيث الغي والهاوية.

وأخيراً ..في لحظات من الهموم المستبدة الآسرة، والأحزان والابتلاءات العاتية، تُستقدح الولاعات، وتُستحث القدَّاحات لإشعال السجائر المتعاقبة واللفائف المتتالية؛ هروباً من مواجهة الآلام، وتجلداً إزاء التجارب الحزينة الصادمة.

لِيحْمَد اللهَ امرؤٌ سَلِمَ من أسْر التدخين، ونجا من ذل عبودية لصيقة، وعادة مدمِّرة مقيتة، لكنه الحمد الذي لا ازدراء معه لمن رَسَفَ في أغلال السجائر، أو سَقَطَ في أَتُون النرجيلة واللفائف.

فبقدر شفقتي وأساي على المدخِّنين، بقدر ضيقي وحَنَقَي على من يحْقِرهم، ويستعلي عليهم، ظاناً أنه نأى عن سيئ عادتهم، وتعالى عن قبيح مسلكهم،

ضارباً الذكر عنهم صفحاً غير مقدر لظروفهم، غير حافل بتاريخ تعلُّقهم بالتدخين، مُدلاً بعمل لا يَدَ له فيه، ومُعْجَباً بسلامة ليست من صُنع يديه ولا من كسبه.

وكان لِزاماً عليه أن يعتقد أن نجاته من التدخين هو محض حفظ من الله وفضل رعاية، ومن يدري فلو كنتَ أيها المُدِلُّ بترك التدخين مكان غيرك من المبتلَيْن لأوقعك الشَّرَك، ولغواك شيطان الإنس، بعد استبداد الهوى بك وتزيين النفس.

فإلى الذين يُكْبِرون الناس حتى إذا ما عَرَفُوا بتدخينهم أسقطوهم من نواظرهم، وقعدوا بهم من شَرَف مكانتهم ومنزلتهم.

لستُ معكم فالتدخين رغم وزره، وإثمه وجُرمه، لا ينبغي أن يكون مدعاة أو ذريعة لاحتقار الناس أو الإزراء بهم.

في تصوري أن التدخين داءٌ مثله مثل سائر الأدواء، متعاطيه مريض تسري علته في دمائه، وتدب في عروقه وأوصاله، وتدمغ عقله، وتُعنِّي فؤاده.

فصاحب هذه العلة يستأهل الشفقة والرحمة، ويحتاج إلى المؤازرة والمساعدة، تُنعشه كلمة متلطفة حانية، وحوار رشيد يصل به للقناعة والعافية.

كما أنه يفتقر لدعوة مخلصة دافئة، ولعيون بالأسى والإشفاق عليه عاتبة؛ إذا لمس المدخن هذا من غيره كان أجدر على مقاومة دائه، وأقوى على مجابهة علته وتجرع دوائه، وأحرى بمحاولة التخلص والتحرر من آصاره وأوزاره.

فما من مريض إلا يرجو الشفاء ويعشق العافية، ولو سُئل أي مدخن لو كان بمقدورك هل تبقى مدخناً أم تُقلع؟

سيقول ليتني ما تعلَّقت، ولا في براثنه وقعت، سامح الله من كان السبب!

بيد أني لستُ مع مُدخِّن يترك الفضاء الرحب الوسيع، ثم هو يؤذي غيره بسُحُب دخانه في مزدحم طريق، أو في ملتقى مارَّة، أو في مركبة عامّة، أو منعطف سابلة، أو في أماكن محدودة مغلقة، أو في اجتماعات عاجلة ضيقة.

لست مع مدخن لا يعبأ ببراءة طفل، ولا يحفل برجاء هامس من مريض، أو صغير، أو كبير، أن" :أطفئ السيجارة من فضلك."

يجب على المدخن أن يستشعر أنه يرتكب بذلك مخالفة دينية، وقانونية، وإنسانية؛ فما من شرع إلا كان من مقاصده حفظ النفس، وتحريم الخبائث.

وما من قانون إلا جرَّم الإضرار بالناس، وسَنَّ وشَرَعَ مَنْع ما يؤرِّق ويؤذي الآخرين، وما من مبدأ إنساني إلا أعلى من قيمة الحرية، وأدان أسْر العبودية، وثرَّب على متجاوزي الحقوق الإنسانية.

والتدخين – فيما أحسب – يشبه الرق الذي جفف الإسلام منابعه وموارده، وفتح مصادر التحرر منه على مصاريعها.

فينبغي على المدخِّن أن يُضَيِّق فرص تعاطيه، ويُحجِّر وسائل التمادي فيه، ويتوسع في بدائل تُنسيه سطوته، وتُكفكف عنه صولته.

ومن ذلك على المدخن اختيار زمان ومكان مناسبيْن لممارسة التدخين؛ وعليه ألا يُدخِّن مع غيره؛ لأن في هذا إكثاراً من الدخان المتخلف والمنبعث.

كما أن مع" التدخين الجماعي "لا يَشْعُر المدخن أنه مذنب يقترف إثماً سيُحاسب عليه، ولا بأنه عاصٍ يرتكب ذنباً سيُسأل عنه إن لم ينتهِ عنه ويُقلع، بل سيُغري" التدخين الجماعي "بمزيد من إشعال اللفائف، وكثير من الإهدار والإسراف والمتالف.

وعلى المدخِّن إن كان قوي الشخصية والعقيدة، فولاذي العزيمة صُلب الإرادة، الإقلاع الفوري عن التدخين، والمبادرة بالإمساك الحاسم عن تعاطيه.

أما إن كان أقل شكيمة، وأضعف قوة وحيلة، فعليه تقليص مرات التدخين تدريجياً حتى يصل إلى درجة القدرة على الامتناع التام؛ وعليه قبل ذلك كله ومعه أن يضرع إلى الله صادقاً أن يُنقذه من قيدٍ ألمَّ به وأسَرَه، ومن غل أحاط به وحَبَسه.

وأراني أُخالف بعض اتجاهات علم النفس التي ترى للتخلص من التعلق "الوليد "للأطفال بالتدخين؛ أن نُغدق عليهم كماً كبيراً من السجائر في جلسة واحدة؛ ليتحقق بذلك ضيق الطفل ذرعاً بمتابعة المعاقرة، وبتوالي التعاطي والممارسة، فيحدث عنده رد فعل معاكس لتعلُّقه بالتدخين.

ذلك أن هذا الأمر إن صَلَحَ مع طفل فقد لا يُجدي مع آخرين، كما أن في هذا غرراً ومخاطرة بصحة الأطفال التي قد تتأثر وتتردى بمتابعة واستمرار التدخين مدة الجلسة.

ولا أميل كذلك لما يحلو لكثير من الدعاة والخطباء حين يضربون الأمثال على تفشي ذنوب العباد ومعاصيهم، من أن يركزوا فقط على مرتادي المقاهي والمدخنين، وكأن المقاهي بؤر فساد عريض خطير، وكأن مرتاديها جميعاً أهل شر مستطير.

إن الأمر ليس على هذا النحو من التعميم والمبالغة والتشويه، فالمقاهي إنما هي مجالس الناس فيها يلتقون؛ وعليها يتحاورون ويتناقشون، ومن خلالها يتنفسون الصُّعَدَاء ويتسامرون، ولأعمالهم ينسقون ويخططون.

فليست المقاهي شراً محضاً، ولا سُوءاً خالصاً، لا سيما إن كانت بشروطها من غضٍّ للبصر، وردٍّ للسلام، وكفٍّ للأذى، وأمر بمعروف، ونهي عن المنكر.

وأن تخلو من محظور المشروبات والألعاب والمشاهدات، فضلاً عن الميسر والقمار، وأن تخضع لدوريات مراقبة من الحكومات والسلطات.

في حين كان الأولى بضرب الأمثال من الدعاة للخطايا بمن يرتكبون الكبائر، ويُسرفون على أنفسهم في الفواحش، مُحتقبين جرائمَ تُوجب الحدود، وألواناً من الفساد الإداري، والإعلامي، والصحي، والتعليمي، والاقتصادي، فضلاً عمن يُهدرون مقدَّرات الدولة، وينتهبون الأموال العامَّة.

أخيراً ..القارئ العزيز ..إن كنت معافًى من التدخين فقل :الحمد لله الذي عافانا ولو شاء لابتلانا، وإن كنتَ مُدخِّناً ثم أقلعت، ولرحاب ربك أنبت، فقل :كذلك كنَّا من قبل فمنَّ الله علينا.

وإن كنتَ تعالج الإقلاع، وتحاول الامتناع، فأسأل اللهَ لك النجاح في التحرر، والوصول إلى الخلاص والعافية، ثم إني لا أرتضي لك قارئي العزيز أن تكون الشخص الرابع رهين المحبسين :الدُّخَان، والهوى.

18-طابونة الحاج استوكل

في مطلع الثمانينيات بمنطقة أبي قتادة التي تبعد عن جامعة القاهرة عشر دقائق سيراً، حيث كان عهد الرئيس الراحل السادات يلفظ أنفاسه الأخيرة.

لتبدأ الباكورة الزاهرة من عهد الرئيس الأسبق مبارك، في وقت كان نهار الناس عملاً وسعياً ومعاشاً، وكان ليلهم سكناً وراحة ولباساً.

في زمن كان الناس فيه لا يخجلون أن يسيروا في أزقة أبي قتادة وادعين بالبيجامات أو الكلاسين والجلاليب المَخِيطة.

وكان كثير منهم يصلحون ما اهترأ من ملابسهم ونعالهم، لكنهم بلا ريب لا يرتضون ارتداء السراويل المقطعة عن صَيْحة وعمد، أو عَيْلة وفقر.

والناس في تلك الحقبة كان الفقر يضرب بأطنابه جنبات حياتهم، لكنهم كانوا يجابهونه بالقناعة والرضا والحب فيما بينهم، كأنهم كانوا على علم بفقه الأولويات.

فلا فاره الموبيلات يسطو بخيالهم، ولا أكلات" التيك واي "تستبد بتصورهم أو تعصف بخواطرهم، ولا حتى بريق الشاليهات يطوف بخلدهم ويؤرق منامهم.

بل كان جنيه واحد مصري قمين بتوفير ثلاث وجبات لأسرة كاملة، وكانت عشرة قروش زعيمة بتحصيل عشرة أرغفة.

في ذلك الإبان كنت غلاماً يافعاً حلا لي أن أعمل فترة من الإجازة الصيفية التي يستشعر طولها ويستروح جمالها الأطفال، ولَكَمْ يستبطئ الأطفال الزمن، فالساعة لديهم عشر، واليوم عندهم دهر.

عملت بمخبز الحاج استوكل للخبز البلدي، وكان العمل اثنتي عشرة ساعة من السابعة صباحاً حتى السابعة مساءً؟

كان العمل مضنياً لغلام أمرد، وشاقاً لفتى حَدَث، حيث تهوية الخبز، وحمل الطوالي، وقَمّ المخبز، وتوزيع الخبز على المحالّ وبعض المؤسسات الحكومية، والمشاركة في بيع الخبز لعامة الناس وجمهورهم.

لفت نظري في تلك الحقبة من الزمان أن مؤسسات الدولة كانت كخلايا النحل، نظاماً وعملاً وإنتاجاً؛ ما اضطر مؤجر المخبز) المعلم عبدالحميد الألفي (حين كان يبيع بعض جوالات الدقيق التموينية المدعومة – متجاوزاً القانون – أن يلوذ بظلام الفجر، مستتراً من أعين الناس، مستعيناً لا بالحفيظ العليم بل بالقوي السريع من فتيانه بالمخبز.

وكان الرجل يبيع تحت جنح الهزيع الأخير من الليل جوالين أو ثلاثة فقط من أربعة وعشرين جوالاً حصة الحكومة المدعومة إليه؛ وهو بعدَ صفقة البيع كنت أراه لا يشعر بوخز ضمير، ولا تأنيب نفس؛ ولا حتى معاتبة خاطر .. كيف لا؟

والرجل قد خبز واحداً وعشرين جوالاً غطى بها عَوَزَ الجمهور والمحاويج بالليل والنهار، وارتزقت منها المحال والبقالات، واستقطع منها نصيب المؤسسة الفكرية التي تعاقد معها، فكأن الرجل يرى نفسه شريفاً محسناً!

كان لا يمر علينا بالمخبز هلال شهر إلا داهمتنا مباحث التموين، وكان رجالات التموين في ذلك الوقت لا يرتشون ثم فور عملية الاقتحام ينقلبون.

بل كنت أراهم يزنون الخبز، ويتفرسون ظهور الأرغفة وبطونها، يبحثون عن علة للقبض على صاحب المخبز، أو ذريعة لعمل محضر من واقع بينة ودليل.

وكانوا كما هو العهد دوماً بالشُّرَط والمباحث غلاظاً شداداً يدسون في حناجرهم معاجم خاصة بالشتائم والسباب غابت عن الخليل بن أحمد فلم يرصدها، وعزبت عن صاحب معجم اللغة العربية المعاصرة فلم يدونها.

كانوا ينثرون هذه الشتائم حين يتحدثون مع إدارة المخبز أو أحد العمال، وفي أسكن أحوالهم إن لم ينتقدوا شيئاً جوهرياً في وتيرة العمل كانوا يأمرون بغلظة بفَرْد الخبز وبَسْط عجينه، وتحسين استدارته، مع مسح وتنظيف بلاط الموقد.

فإن ألفَوْا خللاً أو رصدوا عيباً اصطحبوا معهم إما أحد أبناء المعلم الألفي لأنه كان واضح العلَّة بيِّن المرض، أو يقبضون على) الخراط (الذي قطَّع العجين بوزن مخالف ليغازل به الألفي ويسترضيه.

والآن ..ألم يأنِ لمصرنا الحبيبة أن يعود نهارها نزقاً مشرقاً ألّاقاً، وليلها ساكناً حالماً وادعاً، وشعبها خلوقاً كريماً باسماً، رسالة من القلب آملة هامسة موجهة للأفراد قبل الساسة، لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

لكل من بيده مقلاد من مقاليد الحكم، لمن يمسكون مصر من قرنيها، أهيبوا بالمؤسسات كلها أن تعمل، وبالإدارات جميعها أن تنتج، وبالوزارات والمحافظات أن تنطلق.

وبالمسؤولين في كل صعيد أن ينتشروا في رحمة وأمانة وخلق، أعيدوا مباحث التموين وغيرها من السلطات سيرتها الأولى فمن أمن العقوبة أساء الأدب.

أنقذوا مصر من التردي في أتون هاوية يحيلها طبقتين إحداهما غنية طاغية، وأخرى فقيرة بائسة؛ فإن لم تفعلوا تستبد الغنية بالفقيرة، وتحسد وتنتهب الفقيرة الغنية؛ وتكن فتنة في الأرض وفساد عريض.

أيها السادة :الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء!

19- التفاضل والاختيار

فَاخَرَ الصيفُ الشتاءَ ذات مرةٍ مُدلاً بما أوتي من طول نهار، ونسيم ليل، وصحوة شمس مشرقة، وروعة مساء مُحدقة، وضحوة نهار مبهجة، وظلال أمسيات ساحرة، ووادع قيلولة هانئة.

وظنَّ الصيفُ أنه عزَّ الشتاء في الخطاب، أو أحرجه عن الدفاع ومواصلة السجال، أو أفحمه ونال منه مبتغاه.

فقال فصل الشتاء :نهارك يا صيف حرور ولهيب، ويومك شمس لا تغيب، حر الصباح من بأسك، ولفح الهجير من كسبك، وعَرَق الأصيل بعضُ وِزرك.

أما أنا فربيع المؤمن ..نهاري قصير للصائمين، وليلي طويل للقائمين والراكعين والساجدين.

عزيزي القارئ ..خلق الله الأكوان جميعها، وفضل بعض خلقه على بعض؛ لكنه التفضيل الصادر من لدن حكيم خبير} فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً{،} أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ{، سبحانه يفصل بالحق وهو أعلم بالغيب} قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ.{

بل قد فضل بعض الرسل على آخرين مثلهم} :تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ.{

وهو التفضيل الذي لا يندّ عنه غيب، ولا يؤثر في حُكمه مُستجد، والله– عز وجل –كما أن له طلاقة القدرة والخلق، فله كذلك مطلق الاختيار والاصطفاء والتفضيل} :وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ.{

حتى فيما يتعلق بالزمان والمكان} :لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ} ..{والفجر وَلَيَالٍ عَشْرٍ} ..{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} ..{وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.{

إن أحكام الله كلها منزهة تامة كاملة عادلة؛ لأنه الواسع العليم الذي لا يتفاوت علمه، ولا تتباين قدرته} وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ.{

خلق الله أجمل الكائنات، وأرق المخلوقات، وأعذب الأصوات، وخلق ما دون ذلك لحكمة وعلم سابقين في مشيئته.

لكنه استملح منها واستجاد، واستقبح بعضها واستنكر؛ كخلقه سبحانه– على سبيل المثال –للخنزير وصوت الحمار، وإن كانت كلها مخلوقة لحكمة مُرادة، وعلم سابغ محيط.

فسبحانه} لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ..{لكنه لفت سبحانه أنظارنا إلى أن نجنح للجميل ونحاكيه، ونزورّ عن القبيح دون أن نحقره ونزدريه} وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}

إن ثمة قضايا لا يمكن للمرء أن يختار بسهولة بين مطروح إجاباتها الموجهة باختيارِ واحدٍ من متعدد، ولا أن يقطع لحلها وإنجازها بترجيح شيء على آخر؛ لأن هذه الأمور وتلك الاختيارات والإجابات تشبه في طلاقة نفعها، وعموم جدواها الفاكهة.

فليس سؤالاً صحيحاً ما خيرَّك أيهما ألذ وأفضل :التين أو العنب؟ أو أيهما أشهى وأطعم :التفاح أو الكُمثْرَى؟

أو أيهما أنفع :الليل أو النهار؟ أو أيهما أجدى :الشمس أو القمر؟

من دون شك ..فإن لكل خلق مميزاتٍ وعيوباً، ولكل خلق طبيعته وخصائصه، وإن نظرة موضوعية للأمور تُوقفك على الحقيقة، مفادها أن كل خَلْقٍ لله حسن وجميل إذا ما كان في سياقه، وأدى وظيفته المنوطة به، ولم ينحرف عن وُجهته، أو يضل عن طريقه، أو يتنكب سبيله، بأن كان ملازماً للفطرة، عاضّاً عليها بالنواجذ، مشغولاً بتحقيق مراد الله في ذاته ومع سربه} فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ.{

يعلمنا القرآن الموضوعية والعدل في إطلاق الأحكام، بحيث لا نفضِّل خلقاً بإطلاق على خلق آخر فَيَمَسّنا غَبْن أو جَوْر .فقال للذين يظنون أن الريادة في الكون لليل بأفلاكه وقمره وأنواره، ولمن حسبوا أن السبق أزلاً كان للنهار بشمسه وضيائه} :لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.{

صحيح أن الآية في ظاهرها تؤكد دقة بناء الكون وإحكام صنعته} وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ {لكنا لا نعدم في الآية إلماعة أو إلماحة إلى أن الكون حين خلقه الله اتسع للشمس والقمر معاً، والليل والنهار في آنٍ، ولم تكن هناك مزية لأحدهما تنفي فضل الآخر.

فلم يُغنِ إشراق شمس عن خسوف قمر، ولا اكتمال قمر عن كُسوف شمس، فنصف الكرة الأرضية ينعم بالشمس وضحاها، ونصف البسيطة الآخر يزدان بالقمر إذا تلاها ..وفي النهاية} :وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.{

هكذا تهدينا إشارات القرآن وتوجهنا إلى سعة الصدر، ورحابة النظر، وبُعد الأفق، وعُمق الفكر.

يعلمنا القرآن الكريم أن الحياة رأي ورأي آخر، وعلينا أن نحاول الجمع والتوفيق بين الآراء إن أمكن، وإلا اعتنقنا ما رجح وغلب على ظننا.

لكن دون تسفيه الآراء والمعتقدات الأخرى حتى إن كانت مخالفة في الدين والعقيدة الأعزيْن، فضلاً عن المخالفة فيما دونهما، ودون نفي الآخر أو تجريحه} وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ..{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا الذينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ الذينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ..{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ.{

وتعلمنا السنة النبوية المطهرة أن الشيطان رمز الشر وباعثه ومحركه حين أرشد صحابياً لذكْرٍ خاصّ في واقعة حراسة تمر الصدقة ..أقره النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال للصحابي) :صدقك وهو كذوب ..(وهذه وإن كانت حالة خاصة) واقعة حال كما يقول الفقهاء لن تتكرر في مجالها(، إلا أنه قد يُقاس عليها قضايا ومستجدات تتصل بها بسبب إن خرجت من المشكاة نفسها وكانت قابلة للانصهار في البوتقة ذاتها.

ومن ذلك أننا إذا تأملنا المخلوقات – حتى الضار منها – وجدناها لا تخلو من الخير، ولن نعدم فيها أوجهاً من الجدوى والنفع والنعمة، فعلينا اكتشاف وجوه الخير وتنميتها، ومعرفة مسارب الشر والتحذير منها.

إذا اتضحت قاعدة الخيرية والشرية لدينا ألفينا أنفسنا قادرين على التمييز بين المهزول والسمين، والرخيص والثمين، والجيد والرديء، والصالح والطالح.

وتكونت لدينا مَلَكَة التفاضل والاختيار للإفادة من معطيات الخلق والكائنات بإيجابية، ولَفْظ ونَبْذ ما عداها من قَذَى الخلق وسلبيات الكائنات في وعي وإدراك.

ومن ثم لا تُسرع – عزيزي القارئ – في الإجابة عن مثل هذا النوع من الأسئلة:

–مَن أفضل على الإطلاق :أبوبكر – عمر – عثمان – علي؟

–ما أفضل المذاهب الفقهية الإسلامية مطلقاً؟

–مَن أكثر الدعاة نفعاً للإسلام طُرّاً :الشيخ الشعراوي ..الشيخ الغزالي .. الدكتور مصطفى محمود؟

ولكن نرد على هذا النوع من الأسئلة بأن الجميع كالفواكه لا تُغني إحداها عن أختها.

فلكلٍّ مذاقٌ وطعم، وحلاوةٌ وطلاوة، وفائدةٌ وغَناء، وحُسن جدوى وبَلاء، فأبو بكر زاخرة ترجمته، وعمر حافلة سيرته، وعليّ سامقة قامته، وعثمان عاطرة صفحته ..رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

20-عنب فرط ..وكسر خيار

رصدت بعض الأعمال الفنية من أفلام ومسرحيات ومسلسلات حالات من الفقر المجدب التي كانت تكتنف المجتمع المصري على مدى عصور بائدة وسنين عجاف ألمت بالقطر المصري.

ومن ذلك ما عُرض في بعض الأعمال من متاجرة بالبيع والشراء في فاكهة البطيخ لا بالواحدة) الحبة(، ولا بالكيلوجرام، بل بالشقة) خرطة هلالية من البطيخة.(

بل شاهدنا في بعض المسرحيات حوار إحداهن لشخصية زائفة تزعم أنها عالمة بالبروتوكولات) نسّابة (لمعادن الطبقات العليا، ثم اتضح لنا من الحوار أنه نصاب مزيف لا علاقة له بالأنساب وأشجار العائلات" :ألست من كانت أمك تبيع أصابع" المحشي "على نواصي الأزقة والحارات."

وعلى الرغم من أن الجنيه المصري في فترة الستينيات والسبعينيات كان متألقاً معافى إلا أن هذا لم يمنع أن نرى صوراً في المجتمع المصري لا تتسق وحالة الجنيه المصري الذي كان يصارع الدولار فيصرعه، وينازل الريال فيقهره.

منها ما وقعت عليه عيني من حفاة ينتعلون أديم الأرض، ويمشون على جنباتها كأنهم جزء من ترابها ويابستها فلا آلام ولا التهابات بالأقدام والأرجل، فقط

هناك بعض التشققات التي تشبه تشققات الأرض وهمودها قبل أن يتنزل عليها ماء السماء فتهتز وتربو وتجود بكل لون بهيج.

كما بقيت في مخيلتي أثارة من ملابس الناس في ذلك الإبان، حيث كان نادراً ما تسلم أسمالهم من خيط راقع، أو لفق ساتر، أو استدراك لجزء مهترئ، أو وصل لقِصَر ثوب، أو إطالة لحسير جلباب، أو تثبيتاً لزر متمرّد، ونحو ذلك من دلالات على حالة اقتصادية متردية، ومعيشة من الضنك مخزية.

إضافةً إلى أن قطاعاً كبيراً من الفقراء كانوا يدخنون بطريقة اللف اليدوي، فهو أرخص ثمناً، وأكثر بركة !وأدعى لعدم التبديد بالسخاء والعطاء.

وكان الذي لا يستطيع التدخين بالعلب والنرجيلة واللف المنزلي، كان يلجأ إلى التدخين بشراء السجائر الفرط، هذا إن لم يُشكّك) يُرجئ (حساباته على النوتة لأجل مسمى أحياناً وغير مسمى أحايين!

لكن وللحق أن مع كل هذه الألوان من الفقر والعوز وكثرة المحاويج، كانت روح الود بين الناس هي المهيمنة، وأمارات التراحم سائدة، ومخايل المحبة عامة متخلّلة، وكانت القناعة والرضا يمثلان القاسم المشترك الأعظم بين الناس.

ومن ذلك أن بيتاً ما إذا كان يخبز في يوم فإذا بمعظم الجيران يطعمون من هذا الخبز، فضلاً عن إتاحة الموقد) الفرن الطيني (لمن أراد ان يشوي شيئاً،

أو ينضج إداماً، كل ذلك مع حب غامر، وعطاء ساخٍ، وأريحية منقطعة المثيل.

وإن تعجب فعجب من مقادير الإقراض، لم يكن الناس يقترضون بالرطل ولا بالكيلوجرام بل كنت تسمع إحداهن تقول لجارتها :من فضلك نريد كوباً من السكر حتى نصرف التموين، وأخرى تهمس قائلة :نحتاج لكوب من الزيت حتى غدٍ.

وكذا الحال مع الدقيق والأرز وغيرهما ..والمدهش أنك ترى هذه الأشياء المستعارة تُرد في تَمنُّع وإباء من المُعير، وزيادة وأكثرية من المستعير يكلل ذلك حب متبادل، وسعادة وارفة، ورضا وقناعة بالواقع والحال.

والآن ..بعد ثورات وتضحيات، وتحرر واستقرار، ودعوى أمنٍ وأمان، وبعد أن امتلأت البيوت بصيحات الموبايلات والهواتف، وشاشات العرض وأجهزة الكمبيوتر.

وصار أطفالنا وشبابنا يرتضعون" الكنز "مع عاجل الساندويتشات أو مُكَيَّس المقرمشات، تجد ثلاجات الفقراء خاوية على عروشها، إن كان ثَمّ ثلاجات، ومطابخهم تئن من فراغها وخوائها، وبطون أطفالهم التصقت بظهورهم مسغبةً وجوعاً.

وتراهم في الأسواق يسألون عن فَرْط عنب، وكَسْر خيار، وهياكل وأرجل دجاج، بعد أن صارت إكسسوارات اللحوم من كرشة، وفشة، وكوارع، وكبدة في غير الممكن والمقدور، وبمنأى عن المستطاع والمأمول.

هذا فضلاً عن أُناس لا تُخطئهم العين يقتاتون أرزاقهم من أكوام القمامة التي ضربت بأطنابها جنبات بلادي ومناطقها دون استثناء.

تُرى ما السبب في ذلك الفقر المدقع، والقهر المُلهب، والصمت الأخرس المطبِق، وتواري السعادة والحب وروح المرح بين الناس؟

أخشى أن نكون في مرحلة عقاب؛ ندفع ثمناً باهظاً لمن سالت دماؤهم رخيصة من كل الفصائل – لا أستثني فصيلاً – حباً وكرامة للوطن الغالي، بذلوها لنحيا كراماً في أمن وأمان حقيقيين، بين حق وواجب مكفولين، بين بذل وعطاء، وتقدير ووفاء، وحرية ورخاء.

هنيئاً لمن نأى بنفسه عن سفك دماء إنسان بريء أياً كان دينه أو توجهه وانطلاقه ما لم يحمل سلاحاً، أو يعتنق إرهاباً، أو يبارك إهلاكاً لمقدرات الوطن، ومرحى لمن طرح الحلول السلمية، ودافع عنها، وناصرها وأيدها.

وسلاماً وانحناءة إجلال وتقدير لمن سلم لسانه وبرئت يداه من إراقة دماء لمعصومين من أبناء الوطن الذين مثلوا تياراته كلها في سلوك حضاري أبيض ووادع.

وسنرى الذين رقصوا على أشلاء ودماء أبناء الوطن إلى متى سيظلون راقصين مُطبلين} ..وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ.{

21- السرقات ..وقبضة الأمن

حقاً لا يخلو مجتمع ما من حوادث سرقات؛ لأن مجتمعاً ما لا يخلو من فِئام متمردة، وطغمة شرسة معاندة، تأصّل الشر في أعماقها، ونبت الإجرام في أحشائها، وتدفق الدم مشوباً بالجنوح والسطو الآثم في حناياها وبين أوردتها وعروقها.

لكن أليس لقبضة الدولة دور مع هؤلاء ..أليس هناك مسؤولون عن الأمن وتأمين الناس في البيوت والطرقات وفي وسائل المواصلات، بحيث تكون أولى مهامهم تأمين الناس على أرواحهم، ودمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، ودوابهم، وأمتعتهم.

ما يمنع حاكماً ما، أو سلطاناً، أو ملكاً، أو أميراً، حين يستقر الأمر لدولته، ويستتب لسطوته، فتذعن له المؤسسات، وتخضع له الأحزاب والوزارات، وتكون أزمّة الأمور في قبضته، ومقاليد البلاد رهن أمره، وأسيرة عزمه ونهيه، وطوع إشارته وقدرته.

لا سيما وقد أضحت سُدة الحكم خاتماً في إصبعه، تدين له الرعية رغباً ورهباً، وينقاد له شعبه حباً وخوفاً، وعشقاً وفَرَقاً.

ما يمنعه ويحول بينه وبين الإصلاح الجاد، ومحاربة مراكز السوء والفساد، وما الذي يحجبه عن إنعاش رعيته رغداً، وتأمين شعبه سِلماً، والعمل على راحة أبناء وطنه، وبني بلده وجلدته.

وما الذي يقف حجر عَثْرة بينه وبين بث الأمن بين الناس، وإشاعة السلام، والقضاء على الفوضى والخلل، ومجابهة بؤر التمرد على العمل، ومهاجمة أرباب السطو وبائعي المحظورات، ومروجي المخدرات.

لا غرو وأذرع الدولة تعمل على قدم وساق، الكل يرتهن بأمره، ويترقب إشارته، ويرمق تشوّفه، ويسعى لتحقيق أوامره ورغباته، بل أمنياته، ونياته، وأحلامه..

حديثي ليس دائراً عن دولة تحت ظلال اضطرابات، أو في أتون ثورات، أو تتناوشها – بعدُ – رحى الخلافات.

مقالي عن دولة مكتملة الأعمدة والأركان، تامة الدعائم والجدران، مستغلظة على سوقها، مستوية على عودها، حاسمة بل قاسية مع مخالفيها ومنتقديها حتى من المسالمين.

ثم هي بعدُ شابة فتية في جيشها، وشرطتها، وقضائها، وإعلامها، غنية بمقدراتها، سخية باقتصادها ودخولها، وروافدها وثرواتها، وطاقتها البشرية وعقول أبنائها.

لذلك أعجب :أين مجدُ دولةٍ، وقدرةُ بلدٍ، وعظمةُ سلطةٍ من قضاءٍ مبرمٍ على تفشي السرقات، والإسراف في الاعتداءات بتبجحاتوتقحمات، وألوان من البلطجة، وصنوف التمردات، وتسيّب من بعض العمال والموظفين وانفلات؟

حين تكتظ ميادين البلاد، وشوارعها، وأزقتها، وحاراتها، بل حول مشافيها، ومدارسها، ومساجدها، وكنائسها، بأطنان القمامة ذات الروائح القذرة.

وحين تمتلئ البيوت خوفاً وفزعاً من سرقات العربات، والسيارات، والتكاتك، والموتسيكلات، فضلاً عن اقتحام الشقق الساكن منها وغير المسكون .. وإليكم هذا المشهد الذي دار بين بعض الجيران في عمارة واحدة..

أحمد :صبحكم الله يا عبده بالخيرات.

عبده :صباح الفل أحمد والبركات.

أحمد :هل عرفت بالخبر أو به دريت؟

عبده :خيراً يا رجل ..كنت خارج البيت.

أحمد :سُرق بيتنا ..الشقة الأولى منه والأخيرة.

عبده :كيف ومتى ..ماذا حدث وجرى؟

أحمد :أمس كان السطو ..وحدثت السرقة.

عبده :وماذا علينا أن نفعل الآن؟

أحمد :لله الأمر .. نبدأ بإصلاح البوابة.

عبده :عرفت أيضاً يا أحمد ماذا جرى؟

أحمد :خيراً ..اللهم اعفُ عنا وعافنا.

عبده :نسي أحدهم بوابة البيت مفتوحة ..ثم تسلل لص فانتزع عداد الكهرباء.

أحمد :عداد الكهرباء؟!

عبده :نعم ..وإنني لا أزال أفكر ماذا سيفعل به يا ترى؟

أحمد :لا بد إذن من عمل باب حديد على كل شقة.

عبده :فكرة طيبة ..لكنها غير آمنة ومكلفة.

أحمد :كيف غير آمنة ..تعني لابد لها من متابعة؟

عبده :نعم ..فلو فتحت باب الشقة الحديد وغفلت عنه من الممكن أن يحمله لص محترف ويعدو به.

أحمد :فما الحل إذن ..وما سبب هذه الظاهرة؟

عبده :الأسباب كثيرة ومن أمن العقوبة أساء الأدب.

أحمد :ترى هل سنظل في حياتنا غير آمنين؟

عبده :ومن أسف ..صيرتنا أبواب الحديد كمسجونين.

أحمد :يبدو أن الدنيا حقاً سجن كبير.

عبده :الله نعم المولى وهو نعم النصير.

وبعدُ ..فنهيب بقيادة رشيدة، وسلطة مُوفقة حكيمة، أن تُري عصابات السرقة والانتهاب بعض الويلات والعذابات؛ حتى يقلعوا عن غيهم، ويرحموا مجتمعهم.

فما تفشت هذه الظاهرة من الجرائم والسرقات إلا بيقين من هذه العصابات بتوجه وانشغال مؤسسات الدولة وأنظمتها بمحاربة المناوئين السياسيين، والمخالفين والنقاد المسالمين، وإغفال وإرجاء وإمهال المنفلتين والمجرمين منهم ولو إلى حين.

هذا فضلاً عن موجات الغلاء المتلاحقة، وأعاصير القهر الاقتصادي المحدقة عالمياً والمتدفقة، والتي في ظلالها تنبت نابتة الحسد والحقد، وناشئة الشر والنهب، وطَغام الحِرابة والسلب، ممن لا انتماء لهم لدين ولا عِرق ولا وطن، ممن لا يرقبون فينا إلاً ولا ذمة.

ولله در بلادي كم تحمل فوق ترابها الطهور من بر وفاجر، وصالح وفاسد، وتقي وسادر، وأمين وسارق، وطائع ومارق، وأبيّ ومنافق، وعامل وعاطل، وحق وباطل} ..وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً.{

22-عفواً ..إلا القرآن الكريم

لقد عهد الله – سبحانه وتعالى – بحفظ رسائل السماء إلى أهل الأرض، ففرطت الأمم في كلمات السماء نسياناً وتضييعاً، وتبديلاً وتحريفاً.

فلما شاءت قدرته اختتام الرسالات وإتمام النبوات باصطفاء محمد – صلى الله عليه وسلم – تكفل الله بحفظ آخر المناهج والرسالات في قرآن مُعجز في نظمه وبيانه، مُدهش في إحكامه وآياته، متجدد العطاءات مع تباين المكان والزمان، صالح لكل بقعة وأوان.

وقد اختص الله – عز وجل – ثلة من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم –بالعمل على تلقي الوحي وحفظه ونشره، كانوا ثلة من الأولين يستحيل تواطؤهم إلا على الصدق واجتماعهم إلا في الخير.

قاد النبي – صلى الله عليه وسلم – أصحابه فانقادوا له وأحبوه فوق حُبِّ الولد والوالد والنفس، وافتدوه بالأرواح والمُهج، وحَفِظُوا هَدْيَه، وسُكونه وخَطْوَه، بَلْه كلامه وأفعاله، ناهيك عن تفاعلهم وحبهم وهُيامهم بالقرآن الكريم الذي وعته واحتوته قلوبهم وصدورهم قبل صحفهم وسطورهم.

وبنحوٍ من هذا التدقيق أو قريب منه تعامل الصحابة الكرام – رضي الله عنهم –مع كلام النبي وسُنته – صلى الله عليه وسلم – تنقيحاً وحفظاً، وتثبُّتاً ونشراً حتى وصل إلينا الدين مكتملاً والشريعة والنعمة تامَّتين.

ثم ما لبث أن شمل التغيير والتبديل واعترى التحريف والتأويل وطال الخلل والزلل عُظْمَ ما وصل إلينا من علوم وفنون من تراث عربي شرقي، أو حَصَلنا عليه من خلال شروح لهذا التراث الأصيل، أو ما اضطررنا إلى ترجمته ونقله والأخذ عنه من الغرب وغيره.

إن كل هذه المصنفات والمدونات شرقيها وغربيها – مما وصل إلينا – يحمل في طياته كثيراً من الأخطاء والهَنَات، وأوجه القصور والزلَّات؛ مع ما به من إيجابيات وسلبيات، ومبالغات ومزايدات، ودعاوى وافتراءات.

وما ذلك إلا لكون هذه العلوم صادرة عن بشر – لا يستحيل عليهم الأهواء والمغالطات والمخاوف والتهديدات والإغراءات – في التدوين والتأليف، والتبويب والتصنيف، والنشر والحفظ، والترويج والتصدير.

وفي حياتنا اليومية المعاصرة التي يكتنفها الجِّد والهزْل، والصدق والزيْف، والكذب والريْب، والحق والباطل، والأصيل والمدخول، قد يُصيب العبث هذه الحياة فيهون التثبُّت، ويعزُّ التبيُّن، وتكثر الروايات المختلفة للحدث الواحد نعتاً ووصفاً، وسرداً ورصداً، واستنطاقاً واختلاقاً.

أمام هذا المشهد الحياتي الإعلامي الذي تتوارى فيه الحقائق، وتخيِّم عليه الأفائك والظنون، وتتصدره التصرفات غير اليسيرة في النصوص والنقول، تبقى حقيقة ناصعة واحدة ثابتة رغم مر الزمان وعصور الظلام والطغيان هي ثبات القرآن الكريم، كلام الله الأزلي الأبدي المعُجِز.

وبخلود القرآن ظلت سرمدية بكارة نظمه البديع البليغ نضرة، لم تخْلَق أو تُستهلك، ولم يخبُ نورها، أو يتقلص فيضها وعطاؤها، فلم يفقد النص الأقدس شيئاً من روحه وريحانه، ونسقه وجماله، فضلاً عن إعجازه وبيانه.

ولقد صدق الوليد بن المغيرة في وصفه القرآن الكريم بعد أن أدهشه نظمه، وحيره سبكه، فسلَّم عقلاً وفكراً بإعجازه، وإن لم يُسْلِم قلباً ولساناً : }وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ] {النمل.[14 :

أصابت شهادة الوليد عن القرآن الكريم، وصح تقريره حين اقترب من لآلئه فشعَّت على لسانه نوراً أكسبه مقولة خالدة" :إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته."

هنيئاً لمن تحرى الصدق فكُتب عند الله صديقاً، وتاب الله على من غلبت عليه شقوته فكان من الكاذبين، وغفر الله لمن يتعامل مع نصوص القرآن الكريم كما يتعامل مع أي نص سواه، حفظاً ونسياناً، قطعاً وظناً، دقة أو حَدْساً وتخميناً.

عفواً ..إلا القرآن الكريم!

ما حفِظْتَ منه وتثبَّتَ فأطلقه نوراً ينساب رقراقاً من قلبك وأركانك على شفتيك ولسانك.

وما لم تحفظه وتعيه فلا تذكره بالمعنى، ولا تعبر عنه بلفظك وتفسده بكلمك وشرحك؛ إلا تفعل كنتَ كأنك تريد أن تطفئ أنواراً بالكون سطعتْ، وتحجب شموساً وأقماراً بالفضاء الرحب أشرقتْ والتمعتْ وبَرَقَتْ.

قد كمدني انتشار بعض آيات الذكر الحكيم مشوَّهة عن غير قصد، مبتورة من غير نية وعزم، مهيضة منقوضاً غَزْلها من بعد قوةٍ أنكاثاً.

ومن ذلك قوله تعالى} :فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ] {يوسف.[28 :

إذ تشيع الآية الكريمة على ألسنة كثيرين مُجتزأة مُختصرة مُحوَّلة من ضمير الخطاب المحدود المحصور إلى ضمير الغيبة المستغرق المطلق" :إن كيدهن عظيم."

ولو أن هذا القدر من الآية قيل على أنه مَثَلٌ ليس من القرآن لقبلناه، لكنه يُقال كأنه من لبنات القرآن وفصوصه.

ويدخل معنا أيضاً قوله تعالى} :وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ] {إبراهيم.[7 :

حيث يلحن فيها المستشهدون بإضافة" و "فيقولون في ابتسار وتزيُّد مُخِلَّيْن معاً بالنص القرآني لفظاً ومعنى" :ولَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ."

وكذلك هذه الآية الكريمة} :وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خيراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً] {الأحزاب.[25 :

حيث يتلو كثير من الناس عَجُز هذه الآية مزيدةً بكلمة" شر "التي أُقحمت على نصِّ الآية فأضعفتها وزوَت معناها" :وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ شر الْقِتَالَ."

أما هذه الآية الكريمة} :وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ] {الذاريات.[22 :

فيجردها الذاكرون لها من بلاغتها الزاخرة المشعة حيث تقديم الجار والمجرور} وَفِي السَّمَاءِ {بما يفيده من ظلال حَصْرٍ وقَصْرٍ جامعَيْنِ.

حيث يذكرها الغافلون في ركاكة أغفلت تركيز الآية على منبع الرزق ومصدر خزائن العطاء بصورةٍ ضاع معها جلال الآية ومقصد تأثيرها" :ورِزْقُكُمْ فِي السَّمَاءِ وَمَا تُوعَدُونَ."

أما ما رواه ابن جرير منسوباً إلى ابن مسعود أو أبي الدرداء – رضي الله عنهما –من أنهما كانا يُقرئان رجلاً قول الله تعالى} :إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ {]الدخان .[44 – 43 :فلحن الرجل بكلمة} الأثيم {إلى" اليتيم."

وقد ردَّه ابن مسعود أو أبو الدرداء عدة مرات فلم يستطع القارئ أن يُصوِّب الكلمة ولم يطاوعه لسانه، وكم يحدث هذا الارتباك أمام هيبة القرآن مع الشادين في تعلُّم القرآن بل ربما وقع مع الماهرين به!

وكأن ابن مسعود أو أبو الدرداء رأيا فساداً عريضاً في المعنى بتغيير كلمة }الأثيم {إلى" اليتيم"، فقالا له قل" :إن شجرة الزقوم طعام الفاجر ."أي :ليس له طعام غيرها.

وقد أجاب العلماء عن هذا بأجوبة سديدة ترفع الإشكال ومن تلك الأوجه:

أن هذا كان من ابن مسعود أو من أبي الدرداء تقريباً) تسهيلاً وتيسيراً (للمتعلم؛ ليفهم معنى الكلمة؛ حتى يسهل عليه بعد ذلك نطق الكلمة القرآنية نطقاً صحيحاً بعد الدربة عليها والمران والتمرس بها.

وأختم مقالتي بما جاء في شرح صحيح البخاري" :كتاب فضائل القرآن :" القرآن كلام الله المنزل على رسوله محمد – صلى الله عليه وسلم –ولا يمكن لأحدٍ أن يبدله، لا النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا غيره من باب أولى.

وفي ذلك يقول تعالى} :وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلى إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ {]يونس.[15 :

وصدق الله العظيم القائل} :إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] {الحجر : .[9صدق الله العظيم.

-23جوف وقلبان ..تفسير وبيان

يقول الله تعالى في كتابه الكريم} :مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ] {الأحزاب : 4].

لقد أكد القرآن الكريم على أن للإنسان قلباً واحداً يزخر بما يعتقد، ويتقلب مع ما يشتهي، ويتفاعل مع ما يحب ويهوى .وحين يصفو الفؤاد فإنه يكون على اللسان برهاناً ودليلاً، وفي بيت نُسب للأخطل يوضح العلاقة بين اللسان والفؤاد:

إنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلاً

إن المتأمل الآية الكريمة يجد أنها جاءت في سياق قضيتي الظهار والتبني اللتين كانتا معروفتين لدى العرب في جاهليتهم وباكورة إسلامهم.

بيد أن القرآن الكريم كدأبه – دوماً – يؤصل المبادئ، ويرسخ المعايير، وينهض بالقيم خلال مضيه قُدماً للمحافظة على الثوابت الإنسانية بإنارة الطريق، وبيان السبيل، ووضوح المحجة.

ذلكم أن الله لا يستحيي من الحق، وما كانت الزوجة مطلقاً أمّاً ولن تكون كذلك أبداً، كما أن المتبنى ليس ولداً صُلبياً أصيلاً ولن يكون، إنما هي دعوى تفتقر لبرهان وتحتاج إلى دليل} مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ

وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ] {الأحزاب : 4].

وكما أن القرآن الكريم أدهش المشركين وبهرهم بسطوته وسلطانه وتأثيره، فتحيروا في وصفه، ولجأوا للهروب من وقعه وجرسه، فتارة يقولون شعر، وأخرى سحر، وثالثة كهانة، إلى أن قرروا التجافي عنه، وتواصوا بالنهي والبعد عنه} وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {]الأنعام.[26 :

بل دعوا أتباعهم إلى عدم الإصغاء لنظمه وآيه، والتشويش واللغط باللغو حول فصاحته وبيانه} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ] {فصلت.[26 :

كذلك فإن شخصية النبي – صلى الله عليه وسلم – أذهلت المشركين، وجعلتهم حيارى، فلا مال مهما كثُر يُثنيه عن دعوته، ولا سلطان مهما عظُم هو مُجدٍ لرجوعه عن تبليغ دعوته والصدع بالتوحيد، ولا الإغراءات المتباينة هي صالحة معه في مساومة أو مهادنة وموادعة.

لذلك مما قالوه عن النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – متخبطين :إن له قلبين :قلباً حين يكون مع أصحابه وآخر حين يجابهنا ويدعونا، أو يناقشنا ويحاورنا، وحين يناوئنا ويبارينا.

وكان معروفاً عند العرب أن الحكيم اللبيب منهم يقال إن له قلبين، مبالغة في حذقه وتدبره وذكائه، وكان بعض العرب حين يريد التنصل من حماقة اقتحبها، أو سفاهة تلبس بها يقول :إن لي نفساً تأمرني بالخير، وأخرى تدفعني لمقارفة الشر.

ويبدو أن أحد المشركين قد حسد النبي – صلى الله عليه وسلم – على ما أُوتي من حكمة ووحي واصطفاء، فقال عن نفسه الحاسدة الجاحدة :إن له قلبين يعقل بهما الأمور، ويزن بهما الحقائق.

وهو في ذلك يزعم أنه يربو على نصيب النبي – صلى الله عليه وسلم – وحظه من الحكمة والفطنة والذكاء، محاولاً بذلك التقليل والتهوين من قدرات النبي – صلى الله عليه وسلم – وإمكاناته وملكاته وهباته الربانية، وقد خاب وخسر هذا المدعي يوم بدر بين يدي أبي سفيان.

لقد ورد في تفسير مجاهد :أَخْبَرَنَا عبدالرَّحْمَنِ، نا إِبْرَاهِيمُ، نا آدَمُ، نا وَرْقَاءُ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ} :مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ] {الأحزاب [4 :قَالَ" :قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِهْرٍ :إِنَّ فِي جَوْفِي لَقَلْبَيْنِ أَعْقِلُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا أَفْضَلَ مِنْ عَقْلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَبَ."

وجاء في تفسير زاد المسير في علم التفسير :ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وفي سبب نزولها قولان:

أحدهما :أن المنافقين كانوا يقولون :لمحمد قلبان، قلب معنا، وقلبٌ مع أصحابه، فأكذبهم اللهُ تعالى، ونزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

والثاني :أنها نزلت في جميل بن مَعْمَر الفهري – كذا نسبه جماعة من المفسرين .وقال الفراء :جميل بن أسد، ويكنى :أبا مَعْمَر .وقال مقاتل :أبو مَعْمَر بن أنس الفهري – وكان لبيباً حافظاً لِمَا سمع، فقالت قريش :ما حفظ هذه الأشياء إِلا وله قلبان في جوفه.

وكان يقول :إِن لي قلبين أعقِل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فلمَّا كان يوم بدر وهُزم المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر، تلقَّاه أبوسفيان وهو معلِّق إِحدى نعليه بيده، والأخرى في رجله، فقال له :ما حال الناس؟

قال :انهزموا، قال :فما بالك إِحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال :ما شعرتُ إِلَّا أنهما في رِجليّ، فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لَمَا نسي نعله في يده، وهذا قول جماعة من المفسرين.

وفي تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور :أخرج ابْن جرير وَابْن مرْدَوَيْه عَن ابْن عَبَّاس قَالَ :كَانَ رجل من قُرَيْش يُسمى من دهائه ذَا القلبين فَأنْزل الله هَذَا فِي شَأْنه.

وَأخرج ابْن جرير وَابْن أبي حَاتِم عَن الْحسن قَالَ :كَانَ رجل على عهد رَسُول الله – صلى الله عَلَيْهِ وَسلم – يُسمى ذَا القلبين كَانَ يَقُول :لي نفس تَأْمُرنِي وَنَفس تنهاني فَأنْزل الله فِيهِ مَا تَسْمَعُونَ.

وورد في تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم :وقيل هو ردٌّ لما كانتِ العربُ تزعمُ من أنَّ اللَّبيبَ الأريبَ له قلبانِ وذلك لأبي معمرٍ أو لجميلِ بن سيد الفهريِّ ذُي القلبينِ أي ما جمعَ الله تعالى قلبينِ في رجلٍ.

والحق أن الإنسان هو من يرسم مصيره، ويخطط جنبات حياته وآفاق مستقبله وفق ما يريد ويرغب، ويشتهي ويهوى، فبمقدور المرء أن يحيا مستقيم الجَنان، ثابت الأركان، يعيش رابط الجأش غير مذبذب ولا متردد، ولا متخبط ولا حيران، فيكون في مصاف الأسوياء.

وهو مع ذلك قد يختار لنفسه حياة يشوبها النفاق، وتكتنفها الازدواجية، ويعتريها الزيف والغش والكذب والأفائك، فلا يسلّم بطلاقة قدرة الله، ولا يخضع لسطوة الوحي، ولا يذعن لمعجزات النبوة، وآيات الرسالة، وهدي الأنبياء.

هكذا أكد القرآن الكريم ألا يوجد قلبان بجوف أحد ولا في صدره، إنما هو قلب ساكن يعمره الإيمان، أو قلب مضطرب بأدران النفاق حيران.

ومن سلِم فؤاده اعتدل عقله، واستقام منطقه، وأصاب لسانه، فيرى المُتبنى أجنبياً، ويرى زوجته هي الصاحبة الحليلة، وأمه هي الوالدة الكريمة، جنته أو ناره، المحرمة عليه تأبيداً.

24-من آداب المقارئ

في مجالس وحلقات القرآن، تعلُّماً وتلاوة، ذكراً وحفظاً، تتنزل السكينة والرحمات، وتُمحى الذنوب والسيئات، وترتفع درجات الإيمان، وتنتعش النفوس والأرواح؛ لأن هذه المجالس تحفُّها الملائكة، وتغشاها الراحة، ويكتنفها الهدوء.

يستشعر هذا ويخبره كل من اتصل بهذه المقارئ أو تعرض لنفحاتها، واقترب من حضرتها ورحابها، وكما أن زيارة القبور – بضوابطها الشرعية – تُذكِّر الآخرة، وتزهِّد في الدنيا فيرجع المرء منها أكثر قرباً من الله، وأقل إقبالاً على التوسع والانديا‌ح مع دوائر الدنيا ودواماتها.

كذلك فإن غشيان مجالس القرآن يؤوب بعده المرء منشرح النفس، واسع الصدر، منطلق الوجه، متجدد السعادة والإيمان.

والحق أن المقارئ قديماً كانت تشبه المدارس في الماضي؛ حيث كان للشيخ في المسجد مهابة المعلم في الفصل، فهما موقران إن حضرا أو غابا، يُسمع لقولهما إن تكلما أو أشارا، ويُرهب جانبهما إن نبَّها صوتاً أو كلَّفا بإشارة.

وكان من وراء هذه المهابة لهما، والسعي في طاعتهما ورضائهما، ظهير من الأُسَر حيث كان أولياء الأمور كثيراً ما يقولون للشيخ والمعلم" :اكْسِر ونحن

نُجبِّس !"في مبالغة منهما لإجلال الشيخ والمعلم، وتعاوناً معهما لإنجاح العملية التربوية والتعليمية معاً.

على الرغم من أن الأمور لم تصل – في الغالب – لكسر وتجبيس، وإن كان أسلوب الضرب لا يرحِّب به ولا يُقرّه السادة التربويون.

فقد كان الأدب منتشراً، وكان الاحترام سائداً، بل كان التقدير والعرفان والوفاء من الطلاب والأسر للمعلمين والمشايخ متبادلاً ومبذولاً في أرق درجاته وأسماها.

وأرى أنه ينبغي أن تطور المقارئ الآن آلياتها وآدابها وأهدافها، لا أقول أسوةً بما هو كائن بالمدارس والجامعات حالياً، ولكن نظراً ومراعاة لاختلاف وتباين شخصيات المتلقين في المقارئ.

فالمقارئ تخاطب الأطفال، وتتعامل مع الشبان، بل ويتجاوز عطاؤها ليشمل الكبار والمسنين؛ لذا على معلم التجويد أن يكون لبقاً يأسر طبقات المقرأة جميعاً .فبعد أن ينتوي بحق أن يشرُف بخدمة القرآن الكريم، عليه أن يراعي تحقيق نيته هذه في كل وقته وأحواله، فلا تعالي من جانبه، ولا سخرية، لا لسب ولا شتم، ولا إحباط، ولا تصعيب.

عليه أن يدير الحلقة بطريقة التعزيز والتحفيز، مبتعداً البعد كله عن مسالك الإزراء والإلغاز والتعجيز، بحيث ينجح في تأليف النفوس والوصول لحب الأفئدة والقلوب، قبل أن يصدع بتعليم أو تدريس أو تكليف.

على معلم القرآن الكريم بحلقة التعليم أن يوقر الكبير، ويرحم الصغير، ويصادق اليافعين، ويخالل الجميع، ولا يُشعر أحداً من رواد المقرأة بمزيته أو فضله، ولا برفعة قدره وعلمه، ليجعل ثمار عمله عند الله أولاً، وهو واجده حتماً عند الناس بما يجودون به طواعية وطبعاً، لا رهَباً وطمَعاً.

ومن ذلك أن يدير المقرأة بالود الراحم، لا بالعبوس الواجم، وبالمرونة المتدفقة، لا بالتسلط والمركزية، ليسمح بكلمة وجهها مُسنّ وإن كانت في غير المجال، ويمرر معلومة ابتدرها كبير وإن كانت في غير وقتها، ويسمح باستطرادة عَجْلى من شاب أو غلام أراد بها الإضافة أو التعليق.

ولا يصد سؤال طفل بريء عن معرفة شيء يسير معلوم من الدين بالضرورة، كل ذلك يمرره بابتسامة ويطوي صفحته سريعاً حتى لا يضيعَ وقتُ المقرأة؛ فإن كان هناك تجاوز ومحاولة إطالة من أحدهم قال له :بعد المقرأة سأكون طوعَ أمرك، ورهنَ إشارتك.

وعلى المختلفين إلى حلقات القرآن المترددين عليها أن يحرصوا على وقت المقرأة، بحيث يكون هدفهم الرئيس هو التعلم والتلاوة قدر الطاقة ووسع الزمن.

ولا ينبغي أن يُجيب أحدهم عن سؤال وُجِّه لشيخ المقرأة أو للمعلم إلا بإذنه، ولا يُصوِّب بعضهم لبعض في حضور المُعلم، اللهم إلا أن كان هناك خطأ أو لحن لم يسمعه المعلم أو انشغل عنه لعارض ونحوه.

ومن المفيد أن يقول مستدرِك الخطأ لمن لَحَن :من فضلك أسمع الآية الكريمة للشيخ مرة أخرى مثلاً.

أو يتفق الشيخ وأفراد حلقته على طرْقة يسيرة على حوامل المصاحف الخشبية حين يصدر زلل أو خطأ أو لحن من أحد القارئين إن غفل عنه الشيخ، كما كان يعلِّمنا شيخنا محمود فرغل – رحمه الله وغفر له – بمسجد التوبة بالجيزة في فترة التسعينيات.

أخيراً ..على معلم القرآن أن يراعي سياسة الأولويات في البدء بالقارئين من أصحاب الحاجات والأعذار والمضطرين للانصراف، ويراعي كذلك تباين مستويات القراء عند التصويب لهم، فما يُقبل من المبتدئين المتتعتعين، لا يُمرر للقدامى والماهرين.

وعليه أن يسلك – أيضاً – مسلك التيسير في التعليم فلا مصطلحات منفرة)إخفاء حقيقي وشفوي، إقلاب، إدغام، إمالة، روم، إشمام، التفخيم والترقيق وأنواع المدود.(..

ليبدأ أولاً بصحة القراءة والتشكيل، ثم يثني فقط بحرفي الغُنَّة) الميم والنون المشددتين (المبثوثين في جميع صفحات القرآن الكريم كله وصلاً ووقفاً.

ثم يَشْرع في الأحكام شيئاً فشيئاً بعد الاستيعاب والفهم والتطبيق، ولا ينتقل لحكم جديد قبل الانتهاء تماماً من الحكم السابق فهماً وهضماً، تطبيقاً وعملاً.

25-من آداب الحفلات

للحَفَلَات والمآدب والأعراس آداب مرعية، وذوقيات متبعة، بعضها باعثه عرفي، أو قومي، وبعضها الآخر مصدره ديني، أو دافعه إنساني.

وينبغي مراعاة هذه الآداب، ويجمُل توخيها، ويحسن استرعاء النظر لها، والالتفات إليها بعين الإجلال والتقدير؛ وذلك لأنها إن لم تُراعَ تَرَكَتْ خبراتٍ سيئةً من الآثار النفسية والاجتماعية المؤثرة في النفوس، الثالمة والجارحة للأفئدة والقلوب.

وبعيداً عن التطفل والمتطفلين، سأحاول الوقوف عند لقطات قد نراها في المناسبات المختلفة، بعضها يبعث على الحرج الآسف، وبعضها يسوق إلى الضيق المُمض، وبعضها الآخر ربما يثير الشفقة ويستجلب الأسى والرثاء لمن تلبَّس بها، أو وقع فيها، أو أحاطت به.

لعلي أرى أنه ربما يكون من الأفضل عدم حضور مناسبة من دون دعوة مباشرة عازمة، حتى إن كان صاحب الحفل أو الداعي أحدَ الأقرباء، أو الأصدقاء، أو الزملاء في العمل.

فما كان لداعٍ أن يسأل صاحبه، أو زميله، أو قريبه، أو صديقه، الذي لم يوجه إليه دعوة لِمَ لَمْ تُلبِّ وتحضر؟

ذلك أن الإجابة واضحة حاسمة قاطعة :أنت لم تدعني ..أو لم تخصّني بدعوة ..وربما لم تُخبرني من الأساس.

لكن في حال ذهب أحدهم من دون دعوة؛ ظاناً أن الحفل حفله، والعرس عرسه، والمأدبة مأدبته، فقد يلقى من العبوس، أو الازورار، أو التهميش والإغفال ما يجعله يندم على مثوله وحضوره وقرار تشريفه!

أما إذا كان ممن شملتهم الدعوة الجادة الصريحة – غير الضمنية ولا العرَضية – فيجب عليه أن يلبي إن كانت ظروفه مواتية، وإلا اعتذر بأدب قبلها بوقت كافٍ.

وينبغي أن يكون لطيفاً في اعتذاره صادقاً ودوداً، مبدياً أسفه مشعراً الداعي بأهمية المناسبة وعِظم شأنها لولا أنه أُحيط به بأحداث طارئة، وتغييرات لم تكن متوقعة غلبت عليه أمره، وحوَّلت دفة سيره وعزمه إلى وجهة أخرى كانت غير واردة في الحسبان، ولم تخطر له ببال.

ولمن لبى الدعوة وحضر إليها عليه أن يبدو في أحسن زينة، وأجمل هيئة تليق بالمناسبة كما تليق بالداعي.

لكن عليه أن يحذر أن يشارك العريس – إن كان الحفل حفل عرس – زيَّه، أو نسقه، أو تسريحته، أو هيئته العامّة، أو بِزَّته التامّة؛ وإلا تساءل بعضهم أين العريس؟

فهناك اثنان أو ثلاثة أعمارهم متقاربة، وهيئاتهم واحدة، وربما كانت نضارتهم وفرحتهم متقاربة متشابهة ..وهكذا الأمر بالنسبة للنساء مع العروس.

فلا بد ألا يختلف اثنان على أن العريس هو هذا لا غيره، وأن العروس هي هذه لا سواها ..فالليلة ليلتهما والعرس عرسهما ..والمندوب مشاركتهما الفرحة والحفل لا استلابهما منهما.

وعلى المدعوين إظهار الفرحة والسرور سمتاً وحالاً، قولاً وعملاً، كما عليهم أن يئدوا – بحكمة – أي فتنة تُطل برأسها لتعكير الحفل أو تنغيصه.

وإن استطاعوا ألا يُشعروا صاحب الحفل بذلك فعلوا حتى يظل الداعي أو العريس مستمتعاً بحفله، مسترسلاً في عرسه وأنسه.

بل عليهم أيضاً كظم الغيظ إن حاول خفيفُ ظلٍّ أو طائش عقلٍ استثارة بعضهم، أو استدراجه لجدل عقيم، أو مناقشة جوفاء؛ لأن ذلك قد يُزجي الأحداث إلى خصومات ومُشاحَّات ورعونات ليس مجالها ولا مكانها الحفل الكريم.

أخيراً ..حين يشعر المدعوون بأن أمواجَ الوفود تتدفق وتتلاحق وقد لا يستوعبهم المكان؛ عليهم وقد أدوا واجبهم وباركوا وهنأوا أن ينصرفوا راشدين ليتيحوا للمقبلين الجدد من الضيفان مجالاً ومكاناً.

على أن يتم ذلك كله بحيث لا يشعر صاحب الحفل بانسحابهم} وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ..{ووعد الله المستجيبين لدعوة توسيع المجالس من المؤمنين بالرفعة والسمو.

فكيف بمن أوسع لغيره من نفسه، دون داعية من إشارة، أو حاجة إلى تلميح بكلام} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قيل انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ الذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.{

وليس على المنصرفين أن يستأذنوا صاحب الحفل في الانصراف إن كان في شُغُل من أمره، بل عليهم الانسحاب الهادئ راجين وداعين – في صدق – أن يبلغ الحفل ذروة تمامه، وحسن كماله، راضين بما أصابوا من كرم ضيافةٍ، وحفاوة استقبالٍ، غير عابئين بما فاتهم من ألوان مأكلٍ، أو هانئ شراب، أو لذيذ مطعم، فالفرحة في القلوب، والمشاركة في الوجدان، والمآدب سجال اليوم لك وغداً عندك.

26-صلاة الجماعة والصف الأول

صلاة الجماعة من أحب الأعمال إلى الله، ندبنا إليها، وحثنا عليها، وأجزل عطاء المحافظين عليها، والمسارعين إليها.

وخصّ منهم أهل الصف الأول حيث القرب من الإمام، ومظنة الدنو من رحاب الرحمن، فهل لصلاة الجماعة من آدابٍ تُراعى، وهل للصف الأول من ضوابطَ تُتوخى، وأين جوهر الصلاة وحقيقتها من ذلك كله؟

بدايةً أقرر أن حديثي لا يتناول صلاة الجماعة والصف الأول تناولاً شرعياً أصولياً، ولا يعرض لها عرضاً فقهياً حُكمياً، إنما مقالي عن آدابٍ وسلوكياتٍ، عن مظاهرَ وسلبياتٍ، عن معانٍ ومعنوياتٍ، وليس عن مبانٍ أو شكليات.

مقالي محاولة لإيضاح جانب الروح والمعنى وتغليبه على نسق الشكل والمبنى في صلاة الجماعة.

لفت نظري في كثير من المساجد التي أقصد، والجوامع التي أصبو إليها وأتردد، هالات وجوه مضيئة تُجلل الصف الأول.

يسعى هؤلاء المصلون إلى المساجد قبل الأذان، وربما مكثوا معتكفين ضارعين بين أذاني المغرب والعشاء، كأنهم والمسجد في رباط واتصال، وتلاحم واندماج، يحبون التزلف لربهم، ويعشقون التقرب والتودد لخالقهم وإلههم وإن كان ذلك قبل بزوغ النداء.

كما استرعى ناظري تأخر أناسٍ بأعينهم عن الصلاة، فبمجرد أن تُنهي صلاتك بالتسليمتين ينتفضون وقوفاً لاستكمال ما فاتهم من الركعات، واستدراك ما تخلفوا عنه من قراءة وتسبيحات وسجدات.

كأنهم أبرموا عقدَ تخلّفٍ وتأخير، أو عاهدوا عهد إرجاء وإبطاء وتسويف، فأولى بهم أن يتعلموا من إخوانهم السابقين إلى الصف الأول، الحريصين على الدنو والقرب والمسارعة في الخيرات.

ومن مظاهر السلبيات– كذلك –أناس حَرْفِيّون يجولون ويصولون مع بِنَى النصوص وظواهرها، غير متجاوزين صياصيها وتخومها إلى الولوج في أعماقها وروحها، أعني ثُلة من المتأخرين عن الجماعات.

يتسللون إلى الصفوف الأولى مقتحمين متقحمين متكلفين قد آذَوْا وآنَوْا، وقصّروا وتوَانَوْا، ظانّين أنهم يحسنون صنعاً بمسارعة ممقوتة إلى فراغ ضيق بالصف الأول، أو بتسابق مذموم ممجوج إلى فرجة لا تتسع لطفل جعلها السابقون متنفساً للوقوف بين يدي الله جل وعلا.

هؤلاء الشكليون في فهمهم، الماديون في حساباتهم وعباداتهم يصطحبون ما في دنيا الناس الرخيصة من طوابير وصفوف، وتزاحم ومكوث إلى ظلال بيوت الله، فيخدشون بذلك روح الخشوع، ويجرحون التضرع والخضوع، ويشوشون على التبتل والخنوع ..ظانين أنهم من أهل الصفوف الأولى ومن المقربين!

ومن المؤذي أيضاً– في كثير من المساجد –ظاهرة حجز الأماكن لغير المبادرين السابقين الأولين، بل لمن اعتادوا التأخير أو نَوَوْهُ، ممن تيقنوا من تأخرهم، واعتزموا قضاء حوائجهم، والتماس مصالحهم التي تقعد بهم عن التبكير إلى الصلاة والاقتراب من المحراب والإمام، لكنها النفوس المادية حين تُعمل حساباتها الرقمية وفهومها النصية الظاهرية في شعائر ربانية وعبادات ومناجاة إلهية.

ومما سمعته من رائع خواطر الشيخ الشعراوي– رحمه الله –قوله بمعناه لا بمبناه، وبروحه لا بفصه ونصه :أهل الصف الأول تعرفهم الملائكة وتسجلهم الكرام الحَفَظَة الكَتَبة بأسبقية الإقبال على الله، لا بأسبقية المعاناة والإيذاء للوصول إلى الصف الأول، هؤلاء هم أهل الصف الأول وإن أخّر بعضَهم تزاحمُ المتزاحمين من المتأخرين.

بقي أن أُسجل امتعاضي وحَنَقي من شبان يافِعِين معافَيْن، أصحاء سالمين، ثم أنت تراهم يزاحمون العَجَزَة والمرضى وكبار السن في مقاعدهم الخاصة بهم، وأرائكهم المُعدّة لهم.

بل قد يرى بعضُهم بعضَ المسنين يبحث عن مقعد يريح عناءه، ويرحم كبره وعلاته، ثم لا هم يُفسحون لهم، ولا يعبؤون بهم، متكئين بظهورهم الفتية على أعمدة ومساندَ كان هؤلاء المسنّون أحقَّ بها وأهلَها.

القارئ العزيز ..بيوت الله أقدس من مزاحمات لا تليق بها إلا مشاكسات الدنا من حولنا، والمساجد والجوامع إنما جُعلت لسجود القلوب والتخلي عن الأذى والذنوب.

وإنما الأعمال بالنيات لا بالمظاهر والشكليات، فمن أراد أن يكون من أهل الصف الأول عليه السعي والعمل، بعد إخلاص القصد، وإعداد النية، وإصلاح الطوية.

عليه التزلف والتضحية بالوقت الباكر المُزجَى سلفاً والممنوح بأريحية بين يدي الصلوات عكوفاً وتبتلاً، والتنصل والتملص من براثن حركة حياة هادرة، ومتطلبات معيشة لاهثة؛ فإن استطاع الفكاك من دنيا محيطة محدقة، والخلاص من حياة مهيمنة مستبدة، ونجح في المبادرة والتبكير للمساجد فبها ونعمت.

وإن لم يستطع فلا أقل من أدبٍ مع الله في بيته وحرمه، وأهل القرب منه وضيوفه المسارعين إلى رحمته ورحابه، اللائذين بعفوه وجنابه.

27-شخصية الزعيم

الله وحده – سبحانه – هو واهب المَلَكات والقُدَر، ومانح الطبائِع والشِّيَم، بحكمته المطلقة يقدر الأرزاق ليس فقط في الأموال والأقوات، بل في الخَلْق والصفات، والطَّبْع والسِّمات.

ومن ذلك مُسوغات الزعامة وإمكانات القيادة والريادة ..فهناك أشخاص تراهم قد جُبلوا على الزعامة والقيادة خليقةً وطبعاً؛ بما منحهم الله من شخصية مستوعبة حاضرة البديهة، متميزة القَسَمات.

لها إطلالة آخذة، وحديث مهيمن، وقدرة على الاستماع والحوار، والجدل والمناقشة، والإقناع والاستقبال والإرسال، فضلاً عن التحليل والاستنباط والحزم في اتخاذ القرارات.

ثم أنت ترى هذه الشخصية الزعيمة تُصقل ما وُهبت من أمارات وعلامات الزعامة فتدعمه بما تعلمتْ وقرأتْ، وتقويه بما حصَّلتْ واكتسبتْ، فينضاف بذلك الكَسْب إلى الوَهْب، وتنضم بهذا روافد التعلم والخبرات إلى رصيد السليقة والسمات والصفات.

وينبغي على شخصية الزعيم أن تعلم أنه بقدر ما يُحيط بها من أضواء وزخارف واهتمامات، وما تحظى به من مديح وثناءات، بقدر ما يكون حذرها من أن تقع فريسة النفاق والمداهنة والمبالغات؛ فتغفل عن سلبياتها وتتضخم ذاتها فتخوض في التردي والسقوط، وتتخبط بين مخالب الردى ومباءات الهلاك.

وعلى كل زعيم سواء كان ملكاً، أو أميراً، رئيساً أو مديراً أو حتى مسؤولاً، أن ينمي جنبات الزعامة في نفسه، ويقوي دعائم القيادة في ذاته.

ويرفد ذلك الموهوب ملكةً بالمكسوب سعياً وجِدّاً، وقراءة وعلماً، وخبرةً وعملاً، وإبداعاً وأملاً، مع الحذر من الغفلة أو الإفراط في الاعتداد بالنفس، أو الوقوف بالتسبيح بحمد الذات حول الأنا أو الشخص.

أما شخصية المتسلط فهي فقيرة في الموهوب من مخايل الزعامة، وإن لم تخلُ من بذورها، لكنها تُفرط في حُب الذَّات، وتسرف في إنكار الآخرين، وتستحوذ على مقاليد الأمور كبارها وصغارها، عظيمها وسفسافها، جليلها وحقيرها.

هي شخصية مركزية لا تأذن للحياة بأن تتنفس إلا عن طريقها، ولا تمنح الناس حركاتهم وسكناتهم إلا من خلالها .تُحب الهيمنة، وتعشق السيطرة، وتسعى دائماً للاستحواذ، وتعود بكل شيء إلى قبضتها وسلطانها وقهرها.

شخصية الزعيم تأسرك إذا نظرت إليها، وشخصية المتسلط تنفِّرك إن رمقتها أو أطللت عليها، شخصية الزعيم مستقطبة جاذبة مؤلِّفة، وشخصية المتسلط شاردة دافعة طاردة، شخصية الزعيم واثقة مطمئنة آملة، وشخصية المتسلط قلقة مهتزة شكَّاكة متوجسة.

شخصية الزعيم تضفي على من يعمل معها ألواناً من الحرية والمرونة والإبداع، وشخصية المتسلط تكبل من يتصل بها بقيود الانقياد والنمطية، وأغلال الروتين والتبعية.

شخصية الزعيم تُعيد قراءة ما حولها في تدبر وعمق وإحاطة وإفادة وتوجيه وفهم، وشخصية المتسلط تنكفئ حاسرة على الذات والنفس.

شخصية الزعيم ولَّادة تستنبت زعماءَ صغاراً، وترعى أطفالاً وشباناً؛ لتجني منهم كبارَ الرجالات، وعقولاً ومهارات، وأفكاراً وطاقات، وهي في التاريخ قليلة منزورة، مشرقة مضيئة، متجذرة رفيعة،} كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.{

وشخصية المتسلط هي في غابر العصور ولاحقها متكررة مريرة، مُعتِمة بئيسة، }كمثل شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.{

أخيراً ..شخصية الزعيم يسبقها فترات انحدار، ويعقبها أحقاب انهيار، وهي بينهما قمر منير وشامة، وشمس ساطعة وعلامة .وشخصية المتسلط تجسد فترة تجمع بين الانكسار والانحدار، والقهقرى والانهيار، وتمثِّل نقاطاً سوداءَ في صفحات التاريخ ودواوين الرصد والتصنيف.

شخصية الزعيم ترتبط برخاء الأمم والرعايا والشعوب، وكرامة الهامات ورفعة الرؤوس، وعزة القلوب والنفوس، وشخصية المتسلط رهن بالذل والهوان، وقمينة بالبطش والطغيان، والقهر الممهد للتمرد والعصيان.

شخصية الزعيم ترحِّب بالحسابات الدقيقة، وتسعد بالتساؤلات العديدة، وتنشرح للإضافات الجادة الجديدة.

وشخصية المتسلط لا تسمح بمراجعات، وتضيق ذرعاً بالمناقشات، تؤرقها الحوارات، ويُشقيها قليل من الاستفهامات، ويبددها حُر التساؤلات، ويهدد عروشها سهام الاقتراحات والانتقادات.

28-المباني والمعاني

القارئ العزيز، أظنك قد تميل لترجيح كِفّة المضمون والمعنى على كِفّة الشكل والمبنى، في حين يرى بعضهم أن كلاً من المبنى والمعنى مهمّان يدعم أحدهما الآخر، مرتئين أن بقاء اللب رهن بوجود القشر.

دعنا نقترب من مواقفنا الحياتية لنقف على العلاقة بين الجوهر والعرَض، أو الرُّوح والمادة.

الريحاني والمهندس

حكى الراحل فؤاد المهندس في لقاء متلفز أنه في مقتبل سني حياته الفنية، إبان كان طالباً في الجامعة، شارك في بطولة عرض مسرحي لأحد أعمال الراحل نجيب الريحاني في مناسبة حضرها الريحاني نفسه الذي أشاد بإمكانات المهندس الفنية قائلاً له:

إن أداءك كان رائعاً لولا أنك قلدتني وحاكيت بُحة صوتي، ونبرة حنجرتي؛ يا فؤاد :هذه طبيعة خِلقية صحية خاصة بي، لا دخل لها بأسس العمل الفني أو مضمونه أو غاياته.

وكأني بالريحاني يقول للمهندس :أداؤك أصاب المعنى لولا محاكاة عرَض المبنى!

مترو الأنفاق

من المشاهد المؤسفة المتكررة عند ركوب مترو الأنفاق أن ترى احتشاد الشباب واستعدادهم لاقتحام عربات المترو آمّين المقاعد، راغبين في غنيمة الجلوس، وهم في سبيلهم لذلك قد يزاحمون كبيرَ سن، أو ضعيفَ جسم، أو ذا عاهة، ناهيك عن المرضى والزمنى والأطفال.

قلت :قد يكون العمل نفسه مبرراً بل نبيلاً من هؤلاء الشبان لو تحولت نياتهم إلى الاستباق للمقاعد الشاغرة لاقتناصها لأهلها من الكبار والصغار، والعجائز والحوامل، وذوي الحاجات ..فإن هؤلاء جميعاً أحق بها وأهلها.

عزيزي المتدين حين تقوم عن مقعدك لصاحب عذر من آفة، أو مرض، أو عجز، أو كبر سن ..فإنك تُصيب المعنى، وحين تقوم فقط لذي شارة دينية فهنا قد شغلك المظهر عن الجوهر والمخبر، ما أروع لو نُحلِّق معاً في سماء الخير بجناحي الإنسانية وقلب الإسلام.

بصمة الحضور

لفت نظري حين أوقِّع بصمة حضوري في المؤسسات التي عملت بها حرصي البالغ وغيري على إدراك التوقيع في الموعد المحدد، قبل الولوج في مسار رصد التأخيرات والخصومات.

إلى هنا لا عتب ولا نقد، سيما إذا ما عقِب التوقيع توجُّه جاد للعمل بعد السلامات والتحيات العجْلى، واحتساء مشروب الصباح.

لكن من المخجل أن نرى شُغل الشاغلين بإدراك بصمة التوقيع يعقبه من بعضهم فتور وتوانٍ في جانب العمل، ومرح وسرور بالغان مع الزملاء، مع استرسال الأوقات بالتناجي والمهاتفات.

هكذا نُعنِّي أنفسنا بمبنى التوقيع، ويتوارى حق العمل وراءنا ظهرياً.

صلاة الجماعة

لعلك مثلي قد أكبرت أحدهم وهو يسارع إلى إدراك الإمام في ركوعه مسارعة تبعثك على الرضا لحماس المصلي وحرصه، إلا أنه عند التأمل تجد أنها مسارعة تُخل بالسكينة، وتخدش الوقار، مسارعة تذكرك بلهاثنا في الدنيا وتكالبنا عليها.

ومن أسفٍ أن تُلفي هذا الشخص نفسه فاتر الهمة، متباطئ العزم إن كان الإمام ساجداً لا راكعاً، وكأن كل ما يعنيه هو تمام عدد الركعات لا حلاوة ومضمون الصلوات.

في حين قد تقع عينك على مُصلٍّ آخر تراه تزيَّا بالسكينة، مغموراً بالجلال، يحاول إدراك الإمام في سجوده بهدوء ويقين.

لقد حافظ المصلي الأول على حرفية عدد الركعات، وشغله أداء طقوس الصلاة في شكلها وحدودها.

على حين عايش المصلي الآخر روح الصلاة، فنال من خشوعها وروحها، واستمتع بركوعها وسجودها، وأصاب من بركتها وهداها، فلم يحفل بفوات الركوع الذي بفواته لا تُحتسب الركعات، بل خاف أن يُحرم السجود حيث المزيد من القرب، وبث الشجون، وقبول الدعوات.

29-كلمة شرف

عالجت السينما المصرية قضية الوعد والعهد والالتزام بهما في أكثر من عمل فني، يَعْلَقُ في ذاكرتي من هذه الأعمال فيلم" كلمة شرف "الذي قام ببطولته الراحل فريد شوقي.

وبغض النظر عن إيجابيات هذا العمل وسلبياته، أو تقييمه ونقده دينياً وفنياً، سأحاول التركيز على عنوان الفيلم، موضوع المقال؛ لنرى هل نجحت المعالجة الدرامية في بث فضيلة الحفاظ على الوعد والعهد من دون خطاب وعظي مباشر أو لا.

"كلمة الشرف "كلمة وفاء وصدقٍ، جوهرها إخلاص يزينه التزام وأداء، فيها يرتبط المرء بكِيانه وذاته لا بفمه ولسانه.

يعرف هذا الصادقون ويقدِّره المخلصون، وتحث عليه من قبلُ ومن بعدُ الأديان والشرائع، والفضائل والأخلاق، وتسوقه الأدبيات، وتزجيه إلينا الأعمال الفنية من أفلام ومسلسلات ومسرحيات هادفات.

أتصور أن كلمة التوحيد" لا إله إلا الله محمد رسول الله "هي كلمة شرف؛ ولأن صاحبها سيكون مسؤولاً عن الالتزام بها، وتحقيق مناطها؛ فقد ضن بقولها الكفار والمشركون في سواء نفسي قد يُحمدون عليه!

على حين جاد بها المنافقون سخيةً غير عابئين بمعانيها ومدلولاتها، منسلخين وقت الحاجة من قيودها ومتطلباتها في مراوغات نفسية وسلوكية كانت تظهر ظاهر إسلامهم حيناً وعورات نفاقهم أحايين.

"كلمة الشرف "كلمة التزام بعهد ووعد، ربما يقطعه المرء وهو في بحبوحة من أمره، ورَغَدٍ من شأنه.

لكن الوفيّ يظل على عهده ووعده حتى لو تبدلت الأمور إلى عسر بعد يسر، وحَوْرٍ بعد كَوْر، وقلة وعَوَز بعد وُجدٍ وغَناء، وكَرْب وضِيق بعد فَرج وجِدَة وسَعَة.

"كلمة الشرف "تَبُذُّ عند الشرفاء – حين ينتفي الغرر والتدليس – قوةَ التوقيع، وموثوقيةَ الإشهار، ومساءلةَ القانون وإلزامه.

وذلك مهما كلفت صاحبها من غرامة مالية، أو خسارة مادية، أو حرج معنوي، أو خجل أُسَري واجتماعي وإعلامي.

فحين يبيع البائع بيعةً ما ويفترق عنه المشتري لدقائقَ أو ساعاتٍ، ثم يأتيه مشترٍ آخر يُغريه بزيادة في الثمن على البيعة نفسها.

هنا تبرز كلمة الشرف في قول النبي فيما روى البخاري (2139) ومسلم (1412)عَنْ عبداللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ) :لَا يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ.(

وعندما يدفع امرؤ ما عُربوناً لشقة سكنية، تأجيراً كانت أم تمليكاً، ثم يأتي السمسار بساكن أو مشترٍ يراود صاحب العقار عن بيعته واتفاقه بدفع زيادة على اتفاقه الأول.

هنا تَضَحُ لنا أهمية كلمة الشرف، كما يَضَحُ لنا هل صاحب العقار هذا من الشرفاء أو هو من غيرهم.

وحين يَقْبل الوليُّ خِطبة ابنته أو موكلته من أحدهم، ثم يلوح للولي خاطبٌ آخر ربما كان أفضل ممن ارتضى من قبل، فهنا تُشرق كلمة الشرف في قول النبي فيما روى مسلم (1408) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ) :لَا يَخْطُبُ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ وَلَا يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ.(

وحين يَعِدُ شخص ذو ملاءة اقتصادية أو دبلوماسية – مثلاً – بأن ما صنعه من جهد وتنسيق وتدبير لم يكن ليخص نفسه بثماره ونتائجه، بل هو مبذول من أجل البلد ولصالح الوطن ولن يصب مطلقاً في مجده الشخصي.

ثم يؤكد وعده وعهده بأنه لن يعلو موجة تجعله في الصدارة، أو يرتقي مساراً يوصله إلى سُدة أمرٍ، أو مِقلاد زمامٍ، أو عِز سلطانٍ.

ثم هو يجابهك بعد انحسار الأحداث وقد آض الأعلى قامة، والأزهى مكانة، والأقوى كلمة، والأنفذ قدرةً وسلطاناً ..فتُرى ما مدى نصيبه من كلمة الشرف التي قطعها على نفسه؟!

عوداً لفريد شوقي ذلكم" الحبيس "المظلوم المتهم بجريمتي هتك عرض وتسبب في قتل هو منهما براء، وقد وعد سجَّانه بخروجٍ لمهمة عاجلة لا يصلح غيره لأدائها والقيام بها، كما وعده بعودة مؤكَّدة لجدران السجن حتى لو كلفته العودة نفسَه إعداماً وشنقاً.

خرج" وحش الشاشة"، وقام بمهمته، وعاد إلى محتبسه في الوقت الذي كان السجن كلُّه يرتجف محموماً بإعلان حالة طوارئ لزيارة رئيس قطاع السجون "رشدي أباظة."

وبعد ..فإذا كنا غافلين عن القرآن الكريم الحافل بالآيات عن الموفين بعهدهم إذا عاهدوا.

وإن كنا ساهين عن السُّنة النبوية المطهرة الريَّانة بالنصوص التي تُغلي من مهر الوعد والعهد وتُعلي قيمتهما ..فهلَّا تعلمنا كلمة الشرف من" وحش الشاشة!"

30-ثلاث قرص

عُدت في مارس 2015 لإحدى الشركات التي عَمِلْتُ بها رَدَحاً من الزمن، وكنت في طريقي خلال العام الأول من عودتي للشركة أشتري ثلاثَ قُرص، قُرصة أُسكتُ بها تَمرُّدَ أحْشَائي، وأخرى أتصدقُ بها، وثالثة ربما أهديتها.

وفي العام التالي صار المال الذي أدفعه للحصول على القُرص الثلاث لا يفي إلا بقُرصتين ..فقلت :أزدردُ واحدة، وأتصدق بالأخيرة، وهدّأ من رَوْعِي أن الإهداء يكون عن سَعة.

وفي العام الجاري صارت القرصتان قرصةً واحدةً، رغم أن ما أدفعه لصاحب المخبز لم يتقلص ..قلت :لا تثريب عليَّ إن لم أتصدق فهو عن مقدرة.

والآن ..أجدُني أخشى من إقبال عامٍ جديدٍ اضطرُّ فيه أن أنزوي أو أتوارى من صديق أرمقه في وسيلة مواصلات حيث التذكرة تكون فيها بثلاث قُرص على الأقل!

ثم سألت نفسي هل سيأتي يوم أُدعَى فيه لمآدب طعامٍ ثم لا أنبري لأكون الداعي لمثلها؟

أخشى من عامٍ جديدٍ لا أستطيع فيه صلةَ رحم، ولا عيادةَ مريض، ولا تشييعَ جنازة، ولا تهنئةَ ذي مناسبة} ..فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ.{

ثُم لذتُ مُعتصماً بحمدِ اللهِ بعد ما دار بخَلَدِي قوله تعالى} :وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إن اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ.{

31-ابن الوليد ومحمد صلاح

في تصوري أن الكرة كغيرها من الرياضات جُعلت للممارسة لا المشاهدة، فضلاً عن التعصب لها أو الحمية لفرقها.

رحم الله عمر بن الخطاب لما عزل خالد بن الوليد من القيادة إلى الجندية؛ لأنه خشي على المسلمين من أن يعتقدوا أن أيقونة النصر هو) محمد صلاح(أقصد) خالد بن الوليد.(

ولا موازنة ولا مقارنة ولا مقاربة ولا معية، فعمر وخالد كانا يجاهدان لا يلعبان!

32-ماذا بعد در اللبن؟

كان السيد" تبارك "نائباً لرئيس مجلس إدارة مؤسسة" نصر العربية"، ثم ما لبث أن صار رئيسَ مجلس إدارة المؤسسة بعد أن تُوفي السيد" عنبر الساعات "رئيس مجلس إدارتها السابق، الذي أسس وشيَّد قواعد نهضة المؤسسة وانفتاحها بعد نجاحه في إحراج بعض المؤسسات الأجنبية المنافسة.

وولَّت فترة إدارته بحلوها ومرها، وإيجابياتها وسلبياتها، ثم آلت الأمور إلى السيد" تبارك"، الذي كان زوجاً وأباً لطفلين" :جلاء"، و"جلال."

شرع السيد" تبارك "في بداية عهده الجديد في السير على نهج سلفه "الساعات "فعمل على تحسين المؤسسة، ومتابعة مشروعاتها ومواقع عملها.

فكان دائب النشاط، كثير الحركة والتوجه والانطلاق، يؤازره في ذلك صحة وافرة، ومساعدون أكْفَاء كان يحسن اختيارهم، وتوجيههم، ومتابعتهم؛ فانتعشت المؤسسة في أوائل عهده، وكثرت الجهود والأعمال، وازدادت حركة التصدير، ودارت عجلة الإنتاج.

لم يُقحم" تبارك "أسرته في إدارة المؤسسة، ولا في الظهور اللامع في معارضها واحتفالياتها، ثم بعد عدة سنوات من العمل والمتابعة والإنتاج، تسرب شيء من الصلف والعُنجهية إلى قلب" تبارك."

ظن" تبارك "أنه قادر وحده على إدارة زمام الأمور بالمؤسسة، ولم يعبأ بدعوات مخلصة عقب تلميحات متوجسة بأن يختار له نائباً يعينه، وبديلاً حال غيابه، أو سفره وترحاله.

وأزكى أوار اعتزازه واعتداده بنفسه وسوسة أسرية بضرورة أن يحتجز مكان النائب لواحد من ولديه لا سيما وقد اشتد ساعدهما، واستويا على عودهما.

بدأت أسرة" تبارك "تأمل وتحلم، وتخطط وتعمل، وتهمس حيناً وتلوِّح وتورِّي أحياناً، ساعيةً أن يكون منصب النائب لأحد الشابين.

لذا وجدنا الأسرة من أم وأبناء وزوجات يتصدرون محافل المؤسسة الرسمية ومعارضها المحلية والعالمية .بل أضحت تُكتب بعض أسمائهم على أعمال المؤسسة من مشافٍ، ومدارس، ومشروعات.

كل ذلك والمجلس الأعلى للمؤسسة يرقب الموقف في حلم وتؤدة، وتوجس وتربص، وإعداد لتصورات وبدائل وحلول وسيناريوهات إن احتاج الأمر إليها.

تفاقم أمر المؤسسة سوءاً فقد تراجعت صحة" تبارك"، وضعفت متابعته، وقل تركيزه؛ وهو بعدُ لم يعين نائباً، ساعدته زوجته وأطل ولداه في عُصبة من صحبة مادية متغولة تحسبهم حين تراهم من أبناء المؤسسة لكن سرعان ما تستبين سبيل المجرمين.

فحقيقتهم أنهم دخلاء جاؤوا ليحتلبوا خيرات المؤسسة، ويستغلوا اسمها وسمعتها، ويفيدوا من ثرائها ومقدراتها، فبعد أن كان" تبارك "يُدني في باكورة

فترة إدارته القوي الأمين، أضحى الغالب عليه إدناء الولي الحميم، وتقريب الصاحب بالجنب، واصطفاء الصديق الرفيق.

سلَّط المجلس الأعلى للمؤسسة الضوء الأحمر على وشك تداعي عُمُد المؤسسة، ودق ناقوس خطر الدماء الجديدة التي لم تولد في حاضنة مراكز تدريب المؤسسة، ولم تنبت بين ربوعها، ولم تنمُ بين وحداتها وصفوفها وفروعها ومراتعها.

لكن صوت المجلس ظل خافتاً، في حين كان صوت المتسلقين يعلو، وصورهم تغزو صفحات إعلانات المؤسسة، وتتصدر بهوها وتقتحم دهاليزها في شركات وشراكات، واتفاقيات وصفقات كان هدفها الثراء العاجل لحَفْنة من رجال الأعمال صغار الأقدار والأعمار، مع إضرار وفساد بمصير المؤسسة ومستقبلها، ومصائر رجالاتها، وموظفيها، وعمالها.

وحين انتشرت بؤر الفساد والاستحواذات، وفشت الرشاوى والمحسوبيات جامحة كالسرطانات، وعندما كثر الضغط على موظفي المؤسسة وعمالها من محدودي الدخل في صورة اعتصار لجهودهم، وانتهاب لثمار أعمالهم وإنتاجهم، وإزراء بحقوقهم وكياناتهم ومطالبهم وحاجاتهم، بل وإنسانيتهم تولدت شرارة اعتراض وإضراب عام عن العمل في المؤسسة.

واتخذت الشرارة مسلك تظاهرة كبيرة بيضاء سارت من فروع المؤسسة وانتهى مسارها إلى فيناء المؤسسة الكبير للمطالبة بتغيير الأوضاع والتطوير والتبديل.

عبثاً حاول" تبارك "قمع التظاهرة أو الهيمنة عليها، بدأ بالعنف والتهديد فلم يُفلح، ثنَّى بالاستمالة والوعود فلم يُجدِ ذلك شَرْوَى نَقِير، عَمَد إلى مغازلة بقرارات تغيير وإحلال وتبديل فلم يغنِ ذلك عنه شيئاً، تواضع على غير عادته وطلب الإمهال والإنظار فلم يُستجب لندائه، وضُرب بمناشدته عُرض الحائط.

استجدى المجلس الأعلى للمؤسسة مستغيثاً فأطرق المجلس في أسى وحزن فقد فات الأوان، ولا معدى عن تغيير جذري حقيقي، وحالُ المجلس يشي بأنهم مضطرون إلى الإطاحة بـ" تبارك "وآماله وطموحاته.

ومرت أيام قليلة ثم قفزت الفئران من المؤسسة بعد أن استشعرت دنو الخطر وقرب الغرق.

الآن ..وبعد هذا الدرس القاسي، ألا يجدر بكل مدير شركة، أو كبير مؤسسة، أو عظيم قوم أن يراهن على القطاع الأكبر الذي في عنقه وسلطانه، ولا يخاطر ويغامر بحَفْنة مهما يلتمع بريقها، أو يشتد توهجها ويشع ألقها.

إن يد الله مع الجماعة، والرهان الرابح مع نداءات الغالبية العظمى للمؤسسات، لا مع الأصوات الناعمة للمرتزقة والنفعيين.

ألا ليرفق كل مدير بإدارته، ولا يغتر بمنهج الاعتصار والطحن فهو قد يؤتي بعض ثماره ..لكن إلى حين، والإسفنجة المبلولة عندما يتوالى عليها إحكام القبضات بالعصر تجود بماء ..لكن لمرات منزورات، ثم يحدث بعد ذلك جفاف يعقبه تمزق وانفلات قد لا يُبقي ولا يذر.

والبقرة الحلوب تُدر باللبن خالصاً سائغاً للشاربين ..لكن لمرات معدودات في اليوم والليلة ..بعدها ينفجر ضرعها بدماء وفرث، يعقب ذلك خَضْم وقَضْم، ونَهْس وعَض، ونطح بالقرون وبطح، ودَهْس بالأظلاف ودَوْس، ورَكْل بالسوق والأقدام ورَفْس.

فهل من رجال راشدين يُساهمون في نجاح المؤسسة الجديدة؟!

33-مستعمرة الجذام

أطلقت بعض الصحف على مستعمرة الجذام بأبو زعبل مصطلحات إنسانية كثيرة منها" :المنسيون في الأرض"،" موتى على قيد الحياة"،" عزلة مجتمعية ومعاناة مرضية"، كما وصفتها صحف أخرى بأنها" كارثة بكل المقاييس في مصر تؤلم القلوب الرحيمة"، وأنها" أرض الموت من يدخلها لا يخرج إلا ميتاً."

فماذا عن هذا المستشفى، الموقع، المرضى، إمكانية الدعم والتبرعات ..

الحاج محمد تاجرٌ طيب القلب، رأى ولده إسماعيل ذات مرة مؤرقاً مهموماً، قال الأب لإسماعيل :ما لك يا بني؟

قال :أنهيت يا أبي منذ قليل مكالمة مع السائق الذي نتعامل معه لنقل بضاعتنا، فإذا به ينقل إليَّ مشاعره الحزينة من زيارة أخيرة قام بها إلى مستشفى الجذام بالخانكة فتأثرت بكلماته أيَّما تأثر!

حزن الحاج محمد بعد سماعه تفاصيل مُبكية عن المشفى من ولده إسماعيل، فاعتزم في نفسه زيارة هذه المستعمرة، والتعرف عليها واقعياً عن قُرب.

عرض الحاج محمد الفكرة وطرحها على بعض أهل الخير الذين يعرفهم فشجعه بعضهم، على حين تناسى وغفل آخرون.

جهَّز الحاج محمد يرافقه د .ياسر عربة مشحونة بخيرات غذائية كثيرة، بعدما تعرف كلاهما على احتياج نزلاء المشفى، وما يرغبون فيه من طعام، وفاكهة، وشراب.

سافر الحاج محمد برفقة صديقه د .ياسر لزيارة المستعمرة، فوجدا أن المستعمرة تقع في موقع صحي جميل، الشمس تنيرها كعين الديك صافية، والهواء يتخللها منساباً عليلاً، والماء يتدفق بين ربوعها يروي أشجارها المحدقة والنباتات النامية على مساحة قُدِّرت بعدة مئات من الأفدنة.

المباني الإدارية لا تتجاوز طابقين، وعنابر المرضى جميعها تتكون من دور أرضي واحد، يقول المسؤولون عن المشفى :إن المستعمرة قديمة بُنيت أيام الملك فؤاد الأول منذ مائة عام تقريباً، واختِير موقعها بدقة وعناية صفاءً ونقاءً، خضرةً وجمالاً.

توجه الحاج محمد ود .ياسر إلى عنبر الرجال أولاً، فإذا بعدد المرضى يستغرق معظم ما حملته السيارة من أطعمة ومشروبات.

ثم توجها بعدها إلى عنبر السيدات، فلم يكفِ ما بقي من مواد غذائية عدد النزيلات، تأثر الحاج محمد كثيراً ووعد المريضات بزيارة أخرى قريباً جبراً لخواطرهن، ورفعاً لمعنوياتهن.

حين عاد الحاج محمد من الزيارة انتابه شعور بسعادة غمرته، انشرح لها صدره، وسكنت بها نفسه، وأحس براحة ولذة تذكَّر حينها ما أخرجه مسلم في صحيحه ((2569عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ :يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ :أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ

فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ :يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ :أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ :يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ :اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي.((

استمرت نشوة الإيمان مع الحاج محمد فترة طويلة من الزمن؛ قرر لحلاوتها تكرار تجربة الزيارة وتلافي أخطاء الزيارة الماضية، والعمل على زيادة حمولة السيارة من المواد الغذائية أكثر.

أجرى الحاج محمد اتصالاته، شاركه كثير من أهل الخير، امتلأت السيارة بالخيرات المنوعة بين الدجاج، والمكرونة، والصلصة، والسمن، وجوالات البطاطس والبصل، والعصائر، والبسكويتات، واتفق الحاج محمد مع صديقيه الحاج لطفي والحاج معز على موعد انطلاق الرحلة إلى المستعمرة.

وفي وقت يجتاح الكون فيروس كورونا لم يتردد الحاج معز ولا الحاج لطفي في الزيارة، بل أحضر الحاج لطفي ولده الصغير عبدالرحمن ليُشارك في الخير، وبعد توكل القلوب على الله أخذ الجميع بالأسباب من ارتداء القفازات والكمامات وتعقيم الأيدي بالمطهرات.

وهناك في المستعمرة ..استقبلت نزيلاتُ المشفى الحاج محمد ورفاقه بالزغاريد المدوية، والألسنة اللاهجة الداعية، والقلوب الفرحة الشاكرة، مع

عيون ترقرقت بدموع الفرحة شابها العرفان بوفاء الحاج محمد وصدق وعده لهن بتكرار الزيارة.

عاد الزائرون أمس بعد أن صلوا العصر هناك بالمشفى، في مسجد جامع هو أحد ثلاثة مساجد بالمستعمرة، وحين سأل الحاج معز صاحبيه عن شعورهم بمدى فرحة الزائرات بهم.

قال الحاج محمد :بل هن اللائي أدخلن على قلبي البهجة والفرح، ثم أطرق الحاج محمد برهة وقال :كلما جئت إلى هذا المشفى عدتُ منه منتشياً جذلانَ كأنما كنت في عُمْرة!

قال الحاج لطفي :صدقت فشعورنا لا يوصف فرحةً وسعادةً، ولا غِبطةً وسروراً.

فقال الحاج معز) مداعباً :(الآن توقفت العمرة وقايةً من وباء كورونا، فعلينا إذن أن نتابع بين الحج والعمرة، ضحك ثلاثتهم وقلوبهم عازمة على تكرار الزيارة مجدداً.

فهل من مساهم، أو مشارك، أو مُعين حتى لا تنقطع الإمدادات عن نزلاء المستعمرة والنزيلات؟!

34-أهل القرى والمدن

لا غَرْوَ أن الناس كما أنهم معادن مختلفة فهم أيضاً طبائع متباينة، وكما نرى من بيننا الجوَاد الكريم، فإنا لا نعدم كذلك من حولنا الشحيح البخيل.

لكن هل يؤثر المكان في تكوين طبيعة الشخصيات ..وهل يتأثر الناس بخصائص البيئة المحيطة بهم؟

قالوا :من بدا جفا، أي من قطن البوادي والأماكن النائية غلظت طباعهم وخشنت كالأعراب} الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] {سورة التوبة :الآية.[97 :

وقالوا :إن أهل المدينة أنضر وجوهاً، وألين أرواحاً من أهل مكة، كما زعموا : أن أهل العراق يميلون إلى الإيجاز والاختصار، على حين أهل مصر يجنحون إلى الإطناب والإطالة والإسهاب.

واستأنسوا لذلك بموقفين لنبيين كريمين من أولي العزم من الرسل حكاهما القرآن الكريم، أما الأول فقوله تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام:

}وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ] {سورة البقرة، الآية[124 :، حيث لم يزد إبراهيم عليه السلام عن قوله} :وَمِنْ ذُرِّيَّتِي.{

وأما الثاني فقوله تعالى عن موسى الكليم عليه السلام:

}وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى] {سورة :طه، الآيتان .[18 :17 :حيث كانت الإجابة المتوقعة" :عصا."

وفي مصرنا تلمح توجس أهل القاهرة من أهل الريف سواء كانوا من الوجه البحري أو القبلي، فلاحين أو صعايدة، فكثير من القاهريين يرون الريفيين مزعجين متطفلين، ناعمين نعومة المستوفز لقضاء مصلحة أو حاجة، أو الخبيث الليِّن بالمداهنة لأمر يخطط له ويدبر.

والنظرة نفسها متبادلة من أهل الريف إلى القاهريين، فالريفيون يرون القاهريين أوسع رزقاً، وأهنأ عيشاً، وأمكر نفساً، وأخزى جبلة وطبعاً، وأقل حمية وغيرة، يدلسون عليهم، ويسخرون ويضحكون منهم، وإن استطاعوا أن يمكروا بهم فعلوا وأبدعوا.

لكن تبقى مع ذلك حقيقة قد توافقني عليها، قارئي العزيز، وهي أن الإنسان عموماً يتأثر بعوامل وراثية جينية وعوامل أخرى أُسرية بيئية.

فهناك أسر مجللة بالكرم، وأخرى معصوبة الرأس بالشح والبخل، وأن أهل المدن غالباً أكثر تعقلاً وتفكراً ورويةً، وإن كان أهل القرى يتميزون غالباً برقة العاطفة وصدق الحب.

وفي ذلك أعجبني ما حُكي عن حاتم الطائي كريم العرب الأشهر، أن أخاً له قد غار منه وقال لأمه :لمَ لا أكون زعيم القبيلة وسيدها وأجودها مثل أخي حاتم؟

فقالت له أمه :إنك لن تستطيع.

فقال لها ولم؟

قالت له :جُبل أخوك حاتم على الكرم وفطره الله على الجود، أما أنت فغيره.

قال لها وما ذاك؟

قالت :حين كان حاتم أخوك رضيعاً كان يبكي إن لم أُرضع معه غيره، في حين كنتَ تبكي أنتَ إن أرضعتُ معك غيرك!

لكن السؤال هنا ..هل جُبل الإنسان وسُير على خُلق وطُبع عليه فلا فكاك منه ولا معدى عنه؟

والجواب :الإنسان هو من يصنع شخصيته وكِيانه ومستقبله، والله يمده من قبل ومن بعد بروافد ينتقي منها ما ينسج به حياته، ويدمغ مستقبله، ويخلد ذكراه.

فقط يعاني البخيل، لا ريب، إن أراد تحويل دفته لساحة الكرم حتى يصير الكرم سجية له وطبعاً، كما يعاني الكريم إن ألجأه ظرف قاهر أو موقف طارئ يدفعه لأتون البخل أو الشح، ولعل الأخير سيكون أكثر الشخصين معاناة!

لكن يبقى أخيراً شرف محاولة التغيير، ومكابدة التحول، وما أروع القرآن الكريم حين يحدثنا ألا نقطع لأقوام بأعينهم، معممين الحكم، بأنهم أمناء أو خائنون، بل علينا أن نكون موضوعيين حياديين عند الحكم في القضايا.

فلا أهل" الشرقية "و"أسوان "كلهم أجواد كِرام، ولا أهل" المنوفية "و"دمياط" جميعهم بخلاء لِئام، استمع إلى ميزان العدل واجعله ينساب رَقراقاً على نفسك والآخرين إن أردت أن تحكم بين الناس بالعدل:

}وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ من أن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ من أن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً] {آل عمران :الآية .[75 :صدق الله العظيم.

35-التوك توك

شاهدنا في الأعمال الفنية القديمة، العربي منها وربما الأجنبي، سائق التاكسي يكاد يلتزم بزيٍّ خاصٍّ يميزه، فلم يكن السائق ليتخلى عن بالطو سابغ تزينه أزرار مبثوثة مُصطفة بأناقة على الصدر، وغطاء رأس يخلع حُسناً موشَّى بمهابة يبدو السائق معه كأنه" كابتن "طائرة!

وليست بُغية المقال الوقوف عند ملابس السائقين قديماً وحديثاً، بل هدف المقالة يتجاوز المظهر إلى المخبر، والشكل إلى السلوك، فقد كنا نرى قديماً سائق التاكسي معتنياً ليس بزيه وسمته فقط، بل من قبل كان يحتفي بسيارته إمكاناتٍ واستعداداتٍ وتأنقاً، ويزكّي سلوكه أخلاقاً ومعاملة.

فإذا ما أشار إلى السائق زَبُون يحمل معه حقائب، كنتَ ترى السائق يقف أمام الراكب تماماً، ثم يترجّل سريعاً من على كرسي القيادة ليحمل عن الزَبُون الأمتعة ويُودعها حقيبة السيارة، أو يرفعها أعلى شبكة التاكسي، وبعد أن يتأكد من حفظها الآمن، يفتح باب السيارة للزَبُون قائلاً له :تفضل بالركوب.

وبعد أن يستقل السائق سيارته يسأل الراكبَ إلى أين وجهتنا؟ ثم يُدير عداد السيارة، ويشق طريقه في هدوء وسكينة، فلا جَلَبَة ولا ضوضاء، ولا فُضول ولا تدخين.

وبعد الوصول إلى المكان المقصود ينزل السائق من السيارة فيحمل أمتعة الراكب إلى الرصيف، ثم يُحاسب الراكبَ وَفق قراءة العداد، ثم بابتسامة

وسلام واحترام يُنهي مهمته مع الراكب راضي النفس، قريرَ العين، سعيداً بوظيفته وعمله.

الآن ..نتجاوز فترات الانحدار التدريجية التي اعترت أخلاق السائقين في سمتهم وسياراتهم وسلوكهم إلى دركات الانحطاط مع سائقي" التكاتك."

فبعد غزو" التكاتك "دُنيا الناس الذين استسلم أكثرهم لبريق" التكاتك"، فأصبح من كان يسير على قدميه لقضاء مهمة أو مشوار يستغرق نصف ساعة ذهاباً ومثلها إياباً دون ضجر ولا ملل، ولا نصب ولا تعب، أصبح هؤلاء يُلوِّحون لسائق" التوك توك "بمجرد أن ينعق ببوقه، أو يجلب عليهم بصوت "فلاشته"، ولو كانت المهمة والوجهة لا تستغرق أكثر من خمس دقائق.

واعترى معظم سائقي" التكاتك "سُعارُ الغلوّ والبلطجة، فحددوا أسعاراً لصالحهم، وساوموا الركاب على غير المعتاد من التوصيلات، وزايدوا وبالغوا، وربما هددوا وروَّعوا، وأساؤوا الأدب مع الركاب صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

وعلى رغم استمراء كثير من الناس لفوضى عالم" التكاتك "شكلاً ومضموناً، بَدءاً من أعمار قائدي" التوك توك "التي تتراوح بين التاسعة إلى السبعين؛ أي بين وهج الطفولة إلى وهن الشيخوخة، وبين وجوه سائقي" التوك توك "التي لا تخلو غالباً من علامات مميزة :بين شَجَّة سيفٍ، أو مجرى مِطْوَاة، أو ضربة عصا، أو أثر موسى، أو سَحْجة زجاج.

إلا أنه لا يزال قطاعٌ واعٍ من المصريين رافضين لـ" التكاتك"، لا كوسيلة ارتزاق ومواصلات شريفة أحلها الشرع وخلقها الفقر وفرضها الواقع، بل للمخالفات القانونية والأخلاقية والأمنية التي تنتشر مع دويّ" التكاتك " صاخبةً تمخر أعماق الميادين والشوارع، وتجوس خلال الحارات والأزقّة، وربما دَلَفَتْ ممتدة إلى الدُّور ذات الأفنية الفيحاء الفسيحة.

وفي حي الخزان بمنطقة عين شمس الشرقية، وأنت تعبر شريط سكة القطار الحديدية، وقبل وصولك إلى محطة" التكاتك "التي تبعد دقيقة واحدة عن موقف" التكاتك "الكائن بجوار مدرسة عبدالرحمن بن عوف ومسجد الصحابة، يسألك نحو عشرة سائقين عن وجهتك من دون احترام لأدوارهم، ودون صبرٍ على أرزاقهم، وقد يتشاجرون فيما بينهم على إركابك وتوصيلك.

هؤلاء السائقون في غالبهم شبان لفظتهم نُجوعهم وقُراهم في بلاد الصعيد، أو لعلهم قصدوا القاهرة واهمين أنها كبلاد الخليج، تراهم مصطفين يلبسون الجلاليب والكوفيات، ويُشعلون اللفائف المترددة بين أيديهم وأفواههم ويتصايحون" :سجال ..الشارع الجديد ..عبدالله رفاعي ."من هنا، وباسم شريحة مثقفة واعية من المواطنين أُهيب بمؤسسات الدولة المعنية أن تتدخل لضبط موقف حركة" التكاتك "إن هي عجزتْ عن نقلها إلى مكان آخر أكثر ملاءمة.

وأن تُباغت" التكاتك "في حملات جادّة متعاقبة لضبط المخدرات والرشاشات والأسلحة البيضاء التي تظهر مع الأسف حين يتشاجر سائقو

التكاتك بعضهم مع بعض، أو حين تنشب معركة من المعارك المعتادة بين "الجلادوة "وأبناء" السمطا"، مُخلِّفة معها فزع الأطفال، وصراخ النساء خلال قطع الطريق ودويّ طلقات النيران المتبادلة بين الفريقين.

الآن ..بات لزاماً على الكاتب أن ينحني احتراماً وإجلالاً أمام بعض سائقي "التكاتك "الذين اختلطوا بهؤلاء الهمجيين ولم تُصبهم حُمّى العدوى، فلا هُم يدخِّنون أثناء رحلة، ولا يشتطُّون في طلب أُجرة، ولا تعلو أصوات مركباتهم بصخبٍ ولا إزعاج، مُرادهم العمل الشريف، يعفّون به نفوسهم، ويكفون ذويهم وأسرهم، ويدرؤون عنهم نوافذ الحاجة وأبواب الانحراف.

هذه الثّلة الطيبة من السائقين يمثلون دُرة في جبين بيئة تحيط بهم، شُبانها مجردون من كل فضيلة، مشغولون بكل تافهٍ طرازٍ وجديدِ صيحة، ينهضون من نومهم عصراً، لا هَمَّ لهم إلا التفنن في قصات رؤوسهم المستفزة، وارتداء سلاسل رقابهم المقززة، وحظّاظات أيديهم المستهجنة، والتباهي بسراويلهم الممزقة المرقعة والمحسورة عن بعض عوراتهم.

تراهم صباحَ مساءَ يرتضعون حلمات" الكنز "والبيبسي، ويحتضنون أكياس المقرمشات والشيبسي، ويتسكعون ليلاً بهواتفهم وهم يَجُرُّون أذيال خيباتهم بسلاسل كلابهم النابحة على اختلاف بشاعتها وبشاعتهم!!

36-الكروان الباكي

في عام ثمانية وسبعين وتسعمائة وألف، وفي يوم مشرق ناضر بهيج، وُلد حمدي الطاهر في أحشاء أبي قتادة، تلك المنطقة المنفوحة بالبركات النورانية الموغلة في الشعبية، والمغرقة في الجمع بين الأضداد والمتناقضات، والواقعة بين محطتي مترو فيصل وجامعة القاهرة.

شبَّ حمدي غلاماً فقيراً مثل أقرانه، تتقاذفه أمواج من المرح واللعب، وتتعاور عليه أيام وليالٍ من النصب والسغب، لكن حمدي في ظل هذه الظروف البيئية والمادية غير الحانية، استطاع أن يمخر عُباب الفقر، ويبدد ظلمات الجهل باتصاله بكتاب الله الكريم وإدمانه على مدارسته وحفظه وتلقيه.

بدا حمدي كأنما ورث أشياءَ عن سيدنا موسى الكليم، فالبشرة ليست بيضاء، والأنف منتشر كبير، والعينان واسعتان جاحظتان، بيد أنك حين تراه تجذبك روحه فتسكن إليه نفسك، وإذا حدثته أحببته، فإذا ما سايرته وصادقته عشقته، وقد يتردد في قلبك قوله تعالى} :وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي] {طه. [39 :

ومع مطلع التسعينيات عمل حمدي في مجال الألبان والأجبان بائعاً سمحاً بشوشاً بصحبة بعض الأقران والأصدقاء.

ثم سرعان ما واظب حمدي وبعض من هذه الصحبة الطيبة على الذهاب إلى مسجد التوبة بالجيزة، حيث مقرأة الشيخ محمود فرغل – رحمه الله – التي

كان يُدرِّس الشيخ محمود فيها أحكام تجويد القرآن الكريم من بعد صلاة العصر وحتى الساعة الحادية عشرة مساءً.

وفي مسجد النور بشارع سلام في أبي قتادة بدأت انطلاقة حمدي القرآنية، فبعد ختمه القرآن الكريم شارك في إمامة مسجد النور لا سيما في شهر رمضان الكريم قياماً وتهجداً واعتكافاً.

كان حمدي متميزاً في أدائه، عذباً في صوته، كما كان متمكناً أشد التمكن من حفظه، إذ المصلي خلفه لا يشعر بوطأة ولا نصب، ولا تململ ولا ضجر، ولا سآمة ولا ملل، وإن أطال حمدي الصلاة والدعاء واسترسل.

تتجاوزك الدقة إن نَعَتَ صوت حمدي بالجميل فحسب، فإن صوته آسر حين تسمعه، لا تقليد فيه ولا محاكاة، عليه طابع من التلقائية الخاشعة، ونور من الإحساس والمعايشة.

كان حمدي يرسل الآيات كريمات منسابات كقطر السماء وقت السحر يبلل أوراق الشجر، ويغسل القلوب من الدرن، ويؤذن بتنفس الصبح بعد انبلاج صولة الفجر.

عمل الشيخ حمدي حقبة من الزمن في تدريس القرآن الكريم وأحكام التلاوة والتجويد في مصر، ثم أخبرني أ /سامح الصياد أنه سافر إلى المملكة العربية السعودية ليعمل معلماً للقرآن الكريم في محافظة) بدر.(

وشهد لحمدي كل من تعامل معه من المعلمين والمشرفين وأولياء الأمور بالكفاءة والهمة العالية، وكان طلابه من أكفأ الطلاب ومن أميزهم في الاختبارات، حتى أنه عندما ألجأت الظروف الشيخ حمدي للعودة إلى مصر لم يستطع طلابه على حداثة سنهم التأقلم مع مدرس آخر؛ لذا اضطرت إدارة جمعية التحفيظ الاستعانة بأخصائي نفسي لمحاولة جعل الطلاب يتأقلمون مع المعلمين من بعد شيخهم ومحبوبهم حمدي الطاهر.

اتصل حمدي بعد ذلك بعالم الكمبيوتر عملاً وتجارة، وسرعان ما فتح الله عليه أبواباً من الرزق، فانتقل إلى منطقة قريبة من مسقط رأسه، وشارك في تشييد مسجد بمنطقة زهراء العشرين.

وكان حمدي إماماً للمصلين يُقدمه الناس عن رغبة وحب أينما حل، في تواضع منه وابتسام زادا من تعلق الناس به وتبجيلهم له.

وحين جلد فيروس كورونا أديم الأرض بسياطه، وجاز للناس شرعاً الصلاة في البيوت والرحال، لم يستطع حمدي مقاومة النداء بالمكتوبات، فكان يخفّ لكل أذان، وينشط لكل صلاة في المساجد يؤمها ويقصدها يلتمس فتح أبوابها المغلَّقة، لاسيما بعد مقدم شهر رمضان الكريم.

اعتزم حمدي أن يجعل شهر رمضان مع الحظر أكثر طاعة، وأنشط عبادة، وأعلى همة، فشمر عن ساعده، وكشف عن ساقه، فأحيا ليله، وأيقظ أهله،

وأورى حفظه، وضاعف ذِكْره، أطفأ من المسجد المصابيح، وأشعل في القلوب الأنوار والتسابيح، وصلى بالناس الساعات الطوال قياماً وتهجداً.

أحس المصلون بأن حمدي يعاجل شهر رمضان ويسابقه، فقد كان من دءب حمدي أن يختم القرآن الكريم في ليلة السابع والعشرين أو التاسع والعشرين، إلا أنه اختتمه هذا العام في ليلة الثاني والعشرين.

وبعد ليلة أو ليلتين من الختام، بدا على حمدي شيء من الوهن، وعلامات من الإرهاق والتعب، فكان حين يُسأل عن ذلك يقول..

صالح :سلامتك يا شيخ حمدي ..لا بأس طهور إن شاء الله.

حمدي :الحمد لله، يبدو أن التكييف قد أصابني ببرد.

وبعد يوم أو يومين..

صالح :لا ..لستُ معك ..لقد استمر سعالُك وتراجعت نبراتُك ..لا بد من كشف وعلاج وراحة.

حمدي :إن شاء الله تنتهي الأيام الكريمة والليالي الغوالي ثم أتوجه إلى المشفى أو الطبيب.

صالح :لا يا شيخ حمدي، الآن أشعر بأن هناك كارثة تستتر خلف صوتك المتقطع الواهن وتنفسك المتلاحق اللاهث.

حمدي :لا تقلق علي، أنا أُعاني من مشكلة صدرية مزمنة زادتها موجة الحر الماضية مع المراوح والتكييف.

وفجأة يختفي حمدي عن الأنظار، لينقله ذووه إلى مستشفى بولاق الدكرور العام، حيث تتداعى صحته، وتستفحل علته، ثم يتدخل الأحباب والأصدقاء بنداء عاجل على الفيس بوك يناشدون فيه المسؤولين وأهل الخير وجود سرير في محجر صحي أو بعناية مركزة.

وبعد ساعات تنقل الإسعاف حمدي إلى مستشفى الحوامدية العام، فيدخل في العناية الفائقة، وتمنع عنه الزيارة والاتصالات، وبعد أن استقرت الحالة مع عدم التدهور، طلب حمدي مكالمة ذويه..

حمدي :الحمد لله أنا بخير، لكني أريد أن أفضي لكم بشيء.

ذووه :لا ترهق نفسك، وأرجئ الكلام بعد خروجك بالسلامة.

حمدي :كنتُ أَصِلُ أناساً مما أفاء الله عليَّ من فضلٍ ونِعَم فلا تحرموهم إذا قصدوكم.

ذووه :فُديتَ من كل مكروه وسوء ..أنت لا تزال بخير.

حمدي :من حفظ منكم القرآن الكريم فلا يغفل عن مراجعته، ومن لم يتم حفظه فلينشط لختمه، ومن فاته الحفظ لا يفوته الاستماع والتلاوة والعمل.

ذووه :سلامتك يا شيخنا وحبيبنا!!

بعد هذه المكالمة المقتضبة يدخل حمدي في غيبوبة وتقل نسبة الأكسجين في جسمه، ومع أذان الفجر ترتسم على شفتيه ابتسامة متألقة تصف السرور والحبور، وتنحدر من جبينه حبات عرق مُطيَّبة مترقرقة، ويكسو وجهه وجبهته ضوء ونور، فيسلم حمدي الروح والنفس أربعينياً أباً لثلاثة أبناء، وعلى مثل حمدي فليبكِ الباكون ولينتحب الناحبون!

تأتي سيارة التكريم بالجثمان من الحوامدية إلى ساحة فيحاء بمنطقة العشرين، ليصلي جمع غفير على حمدي ربا على الخمسمائة، ويصحب الجثمان إلى اللحد والقبر ثُلة من الأقارب والمقربين، وقليل من الأصدقاء والمحبين.

وفي مشهد خاشع مهيب، وعقب مراسم التشييع والدفن، كان المشيعون يتلون هامسين دامعين قوله تعالى} :يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي] {الفجر.[30 :27 :

37-لغز الموت

بدايةً أرجو القارئ الكريم أن يُحسن الظن بي، وألَّا يعجل عليَّ، فالمبحث فلسفي والقضية عميقة فكريّاً، وكنتُ قد حررت هذا المقال منذ عام لكني ترددت في نشره، ولستُ من هواة التجديف ولا من محبي الهرطقة!

الأمر إذن نقاش يجلو ما في الصدر من ظُلمة، ويُذهب ما في العقل من قصور ومحدودية؛ وصولاً إلى قَناعة بعد جَهالة، ورضاً مع تفويض وتسليم، وتعقُّل وتدبُّر بعد قلق وتقليد.

لبثتُ سنين عدداً أُفكر مليّاً في حل لغز الموت، نعم ..فالموت في تصوري لغز كبير، ويمكنك أن تشعر بوجه الإلغاز فيه لو استحضرت، بجانب الموت المباغت المتفاوت الذي يفاجئ جميع الكائنات الحية في أعمار مختلفة متباينة، عدلَ الله وعدالته وقدسيته وعظمته في كيفية محاسبة أمواتٍ قضوا بآجال مختلفة وأعمار متباينة، وذلك بعد تمتعنا اللانهائي ببديع ربوبيته وقدرته وعظمته في إنعامه وآلائه.

لم أقف – حتى الآن – على ما يَشفي غُلتي، ويبل ظمأي، في التعرف على حكمة الله، وهي لا شك بالغة، لا في إرادته إخفاء آجال الموتى فحسب، ولا في تعداده صور الوَفَيَات بين خلائقه، ولا لأنه – جل وعز – باين بين وجوه النهايات والمصائر.

نعم ..إنني لم أفهم حتى الآن حكمة الله في تقديره الدقيق الحكيم بتحديد انتهاء آجال الورى قدراً، وزماناً، ومكاناً، وأسباباً، وظروفاً.

واختلاف ذلك كله من إنسان إلى إنسان، وربما انسحاب ذلك التعدد والتباين على كثير من الكائنات الحية، وإن كان الإنسان هو محلَّ دراستنا وبحثنا.

سمعتُ من فضيلة الشيخ الشعراوي – رحمه الله تعالى – أنه قال ما معناه :إن الله إنْ كان أخفى موعد انتهاء الآجال فلكي لا يعربد الإنسان في الكون، ثم هو لا يتوب من قريب بل من بعيد، قُبيل وفاته ودنو أجله وموته.

ثم قال :إنك إن تدبرت إخفاء نهايات الموت وعدم إجلاء مواعيد استيفاء الآجال وجدتَها مُشاعة في الكون بين الناس، فالإخفاء هنا هو عين الإظهار، ذلك أن الله ضرب لنا أمثلة حية بوفاة الأجنَّة، وانتهاء ذوي الأعمار من الساعات، والأيام، والشهور، ومن قضوا نحبهم في عمر الزهور من أطفال، وغِلمان، وجوارٍ، وفتيانٍ، وفتياتٍ .وغيرهم ممن ناهزوا فترة الشباب، ثم لامسوا الكهولة، ثم ودَّعوها إلى انتكاس مرحلة الكبر والطعن في السن} ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا] {غافر[67 :، وأخيراً من قُدر له أن يُردَّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً .

}هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] {غافر.[67 :

إشكاليتي باختصار وتحديد :كيف يتحقق عدل الله في حساب عبادٍ ماتوا عن أعمارٍ مختلفة؟

وكيف نفهم حكمة الله في إنفاذ عدالته مع أشخاص غير متساوين في زمن الاختبار والامتحان) زمن الحياة بكل ما فيها من فُرص، وخِبرات، وعِظات، ومَشْروطيات، واستثناءات ..إلخ(؟

ومما يُطمئنني على مشروعية تساؤلي هذا، حديث القرآن الكريم عن موقف سيدنا إبراهيم – عليه السلام – الذي سأل الله فيه عن كيفية إحياء الموتى لا عن ثبوتها أو التشكك فيها.

}وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] {البقرة : 260].

فكما يقول فضيلة الشيخ الشعراوي – رحمه الله تعالى :– إن إبراهيم لم يسأل سؤال الشاكِّ المستريب في قدرة الله على الإحياء بعد الإماتة، وإنما سؤاله كان عن معاينة كيفية الإحياء بعد الموت} :وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى] {البقرة.[260 :

ولم يقل إبراهيم – عليه السلام :– يا ربي هل تحيي الموتى؟ فالسؤال عن كيفية الحدوث لا عن إمكانية الحدوث، والفرق كبير بين أن تسأل عن كيفية اختراع جهازٍ ما هو ماثل أمامك بالفعل، وبين أن تستفسر عنه وجوداً وعدماً.

ثم أكمل فضيلة الشيخ الشعراوي – رحمه الله تعالى :– بأن الله سبحانه أجاب إبراهيم – عليه السلام – بتعدي قدرة الإحياء ومعالجتها إلى إبراهيم نفسه!

فأمر الله إبراهيم بانتقاء عدة طيور مع تفرُّسها جيداً، ثم أمره بذبحها وتقطيعها بصورة تختلط فيها أجزاء الطيور ببعضها، ثم كان على إبراهيم أن يبثها مرتفعاتٍ من الجبال، وأخيراً أمر الله إبراهيم بأن يدعو هذه الأشلاء بنفسه فتأتيه الطيور حيةً تسعى!

القارئ الكريم، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأعلم أن الله ليس عادلاً فقط بل هو العدل، سبحانه وتعالى، كما أعلم أن في تأخيره آجال بعض الناس خيراً لهم، وأن في قضائه الموت على من يصغرونهم سناً خيراً لهم كذلك.

وأن الموتى من الكافرين والمشركين والمنافقين وغيرهم من عُصاة المسلمين لو عادوا للحياة لخالفوا المنهج} وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ] {الأنعام.[28 :

لكن سؤالي عن كيفية وحكمة اختلاف الأعمار مع توحيد المحاسبة وترتيب الجزاء والعقاب؟

وماذا لو اعترض – جدلاً – أصحاب الأعمار القليلة بأن هناك من عاش أكثر منهم – من قبلهم ومن بعدهم – حتى تهيأت لهم أسباب التوبة والإنابة والصلاح والإصلاح وحسن الختام مع طول العمر ومد الأجل؟

اللهم آمنا بك أنت الحكيم العدل؛ فإن كنتَ تدَّخر لمن عاجلهم الموت مفاجآتٍ طيباتٍ، فاللهم دلنا على ذلك بعلمٍ، أو بكشفٍ، أو بإلهامٍ وفقه وفهم، أو بيقين يبدد حرجَ الصدر، ويذهب حظَّ وسوسة الشيطان.

وإن كنتَ يا ربي ستحاسب على الأعمار حسابك على الأرزاق، فلا جرم أن الرزَّاق ذا القوة المتين أعدَّ حساباً يتسق مع تقسيم عمريّ عادل، كما نرى بديع صنعه لحظياً في تقسيم الأرزاق تقسيماً إلهياً عادلاً.

إنه تقسيم لا يقف بمفهوم الرزق عند حدود المال، والمأكل، والمشرب فقط، بل الرزق عند الله مفهومه أوسع من ذلك وأعم بكثير.

مفهوم الرزق يتسع لجميع الخلق في عدلٍ وسواسيةٍ مع اختلاف حظوظهم من عناصر الرزق منْحاً ومنْعاً، عَطاءً وسلْباً، والله في كل ذلك يسوق الأرزاق ويدبرها مع عدالة متناهية الدقة وحكمة بالغة العظمة!

ولعلي قد أدنو من الإجابة عن تساؤل المقال إذا قلت :إن الله سبحانه وتعالى سيراعي نسب الأعمار بين الخلائق، ف)عن أبى هريرة قال :قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :– سبق – وفى لفظ – غلب درهم مائة ألف قالوا يا رسول الله وكيف سبق درهم مائة ألف؟ قال :رجل له درهمان أخذ أحدهما فتصدق به، ورجل له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف درهم فتصدق بها .(أخرجه أبو يعلى] كنز العمال[17013 ، والنسائي5/59) ، رقم.(2528 فالدرهم بالنسبة لمال الأول القليل نصف ماله، أما المائة ألف بالنسبة لعريض الغنى شيء قليل، ولذلك سبق الدرهم الواحد المائة ألف.

فمن كان عمره قصيراً فليستبشر بسبقه وإنماء الله لقليل عمله، وليس كل من مات انقضى عمله من الدنيا وانتهى، وإلا فأين ثمار الصدقات الجارية، والعلم المنتفع به، والولد الصالح الداعي لوالديه؟

أما من كان طويل العمر فليستبشر بطول عمره وحسن عمله، فرحمة الله واسعة وسعت كل شيء، وما دمنا نؤمن برحمة الله وفضله فضلاً عن عدالته، فما يضيرنا كيف يحققها ربنا الرحمن الرحيم؟!

أرى أنه بات لزاماً علينا لكي ننجو أن نُفرد الله بالتوحيد، ونخصه بالإخلاص، وننجح في ألا يطالبنا أحدٌ من خلقه بمظلمة دمٍ أو مالٍ أو عرضٍ.

فإن نحن حققنا ذلك طمعنا في تصور أنه إذا كان في صالح العبد محاسبته بخواتيم عمله فسيحاسبه الله بالخواتيم، وإنما الأعمال بالنيات والخواتيم، ومن كان آخر كلامه من الدنيا كلمة التوحيد دخل الجنة.

وإذا كان في نجاة العبد أن يحاسبه الله على غالب عمله أو متوسطه حاسبه الله على غالب عمله أو متوسطه} ..فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ] {القارعة.[7: 6:

ومن كان في صالحه أن يحاسبه الله على أحد أعماله حاسبه الله على أحدها وغفر له الباقي، ما لم يكن شركاً أو كانت حقوقاً متعلقة بالخلائق، اقرأ إن شئت الحديث الوارد في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً:

)حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ تَلِيدٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ : أَخْبَرَنِي جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ.(

قال ابن تيمية معلقاً على قصة هذه المرأة :فهذا لما حصل في قلبها من حسن النية والرحمة إذ ذاك.

ولا مانع أن يكون قد وفق الله هذه المرأة الرحيمة للتوبة والهداية، ولكن الأحاديث لم تذكر ذلك؛ وإنما ذكرت أن الله تعالى غفر لها بسبب هذا الفعل، والمقطوع به هو أن الله تعالى وفَّقها لهذا العمل الصالح الذي غفر لها بسببه.

ما يفعل الله بعذابنا مع وجود الإيمان به والشكر له؟ إن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً ما لم تكن شركاً؛ كما بين ذلك في محكم كتابه فقال} :إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ] {النساء.[48 :

أُنهي مقالتي بأنه متى كان الله يعاملنا بالعدل؟ بل هو دوماً – سبحانه – يعاملنا بالفضل والرحمة والإحسان، أليست السيئة بمثلها ويغفرها، فإن هم أحدنا بسيئة فعملها كتبت سيئة واحدة، فإن استغفر الله غفر الله له.

وإن همَّ أحدنا بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة، والحسنة بعشر أمثالها} :مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ] {الأنعام.[160 :

وقال سبحانه} :مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] {البقرة .[261 :صدق الله العظيم.

-38جوف وقلبان ..تفسير وبيان

يقول الله تعالى في كتابه الكريم} :مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ] {الأحزاب]4 :

لقد أكد القرآن الكريم على أن للإنسان قلباً واحداً يزخر بما يعتقد، ويتقلب مع ما يشتهي، ويتفاعل مع ما يحب ويهوى .وحين يصفو الفؤاد فإنه يكون على اللسان برهاناً ودليلاً، وفي بيت نُسب للأخطل يوضح العلاقة بين اللسان والفؤاد:

إنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلاً

إن المتأمل الآية الكريمة يجد أنها جاءت في سياق قضيتي الظهار والتبني اللتين كانتا معروفتين لدى العرب في جاهليتهم وباكورة إسلامهم.

بيد أن القرآن الكريم كدأبه – دوماً – يؤصل المبادئ، ويرسخ المعايير، وينهض بالقيم خلال مضيه قُدماً للمحافظة على الثوابت الإنسانية بإنارة الطريق، وبيان السبيل، ووضوح المحجة.

ذلكم أن الله لا يستحيي من الحق، وما كانت الزوجة مطلقاً أمّاً ولن تكون كذلك أبداً، كما أن المتبنى ليس ولداً صُلبياً أصيلاً ولن يكون، إنما هي دعوى تفتقر لبرهان وتحتاج إلى دليل} مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ

ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ] {الأحزاب : 4].

وكما أن القرآن الكريم أدهش المشركين وبهرهم بسطوته وسلطانه وتأثيره، فتحيروا في وصفه، ولجأوا للهروب من وقعه وجرسه، فتارة يقولون إنه شعر، وأخرى سحر، وثالثة كهانة، إلى أن قرروا التجافي عنه، وتواصوا بالنهي والبعد عنه} وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {]الأنعام.[26 :

بل دعوا أتباعهم إلى عدم الإصغاء لنظمه وآيه، والتشويش واللغط باللغو حول فصاحته وبيانه} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ] {فصلت.[26 :

كذلك فإن شخصية النبي – صلى الله عليه وسلم – أذهلت المشركين، وجعلتهم حيارى، فلا مال مهما كثُر يثنيه عن دعوته، ولا سلطان مهما عظُم هو مُجدٍ لرجوعه عن تبليغ دعوته والصدع بالتوحيد، ولا الإغراءات المتباينة هي صالحة معه في مساومة أو مهادنة وموادعة.

لذلك مما قالوه عن النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – متخبطين :إن له قلبين :قلباً حين يكون مع أصحابه وآخر حين يجابهنا ويدعونا، أو يناقشنا ويحاورنا، وحين يناوئنا ويبارينا.

وكان معروفاً عند العرب أن الحكيم اللبيب منهم يقال إن له قلبين، مبالغة في حذقه وتدبره وذكائه، وكان بعض العرب حين يريد التنصل من حماقة اقتحبها، أو سفاهة تلبس بها يقول :إن لي نفساً تأمرني بالخير، وأخرى تدفعني لمقارفة الشر.

ويبدو أن أحد المشركين قد حسد النبي – صلى الله عليه وسلم – على ما أُوتي من حكمة ووحي واصطفاء، فقال عن نفسه الحاسدة الجاحدة :إن له قلبين يعقل بهما الأمور، ويزن بهما الحقائق.

وهو في ذلك يزعم أنه يربو على نصيب النبي – صلى الله عليه وسلم – وحظه من الحكمة والفطنة والذكاء، محاولاً بذلك التقليل والتهوين من قدرات النبي – صلى الله عليه وسلم – وإمكاناته وملكاته وهباته الربانية، وقد خاب وخسر هذا المدعي يوم بدر بين يدي أبي سفيان.

لقد ورد في تفسير مجاهد :أَخْبَرَنَا عبدالرَّحْمَنِ، نا إِبْرَاهِيمُ، نا آدَمُ، نا وَرْقَاءُ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ} :مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ] {الأحزاب [4 :قَالَ" :قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِهْرٍ :إِنَّ فِي جَوْفِي لَقَلْبَيْنِ أَعْقِلُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا أَفْضَلَ مِنْ عَقْلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَبَ."

وجاء في تفسير زاد المسير في علم التفسير} :مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ {وفي سبب نزولها قولان:

أحدهما :أن المنافقين كانوا يقولون :لمحمد قلبان، قلب معنا، وقلبٌ مع أصحابه، فأكذبهم اللهُ تعالى، ونزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

والثاني :أنها نزلت في جميل بن مَعْمَر الفهري – كذا نسبه جماعة من المفسرين .وقال الفراء :جميل بن أسد، ويكنى :أبا مَعْمَر .وقال مقاتل :أبو مَعْمَر بن أنس الفهري – وكان لبيباً حافظاً لِمَا سمع، فقالت قريش :ما حفظ هذه الأشياء إِلا وله قلبان في جوفه.

وكان يقول :إِن لي قلبين أعقِل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فلمَّا كان يوم بدر وهُزم المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر، تلقَّاه أبوسفيان وهو معلِّق إِحدى نعليه بيده، والأخرى في رجله، فقال له :ما حال الناس؟

قال :انهزموا، قال :فما بالك إِحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال :ما شعرتُ إِلَّا أنهما في رِجليّ، فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لَمَا نسي نعله في يده، وهذا قول جماعة من المفسرين.

وفي تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور :أخرج ابْن جرير وَابْن مرْدَوَيْه عَن ابْن عَبَّاس قَالَ :كَانَ رجل من قُرَيْش يُسمى من دهائه ذَا القلبين فَأنْزل الله هَذَا فِي شَأْنه .وَأخرج ابْن جرير وَابْن أبي حَاتِم عَن الْحسن قَالَ :كَانَ رجل على عهد رَسُول الله – صلى الله عَلَيْهِ وَسلم – يُسمى ذَا القلبين كَانَ يَقُول : لي نفس تَأْمُرنِي وَنَفس تنهاني فَأنْزل الله فِيهِ مَا تَسْمَعُونَ.

وورد في تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم :وقيل هو ردٌّ لما كانتِ العربُ تزعمُ من أنَّ اللَّبيبَ الأريبَ له قلبانِ وذلك لأبي معمرٍ أو لجميلِ بن سيد الفهريِّ ذُي القلبينِ أي ما جمعَ الله تعالى قلبينِ في رجلٍ.

والحق أن الإنسان هو من يرسم مصيره، ويخطط جنبات حياته وآفاق مستقبله وفق ما يريد ويرغب، ويشتهي ويهوى، فبمقدور المرء أن يحيا مستقيم الجَنان، ثابت الأركان، يعيش رابط الجأش غير مذبذب ولا متردد، ولا متخبط ولا حيران، فيكون في مصافّ الأسوياء.

وهو مع ذلك قد يختار لنفسه حياة يشوبها النفاق، وتكتنفها الازدواجية، ويعتريها الزيف والغش والكذب والأفائك، فلا يسلّم بطلاقة قدرة الله، ولا يخضع لسطوة الوحي، ولا يذعن لمعجزات النبوة، وآيات الرسالة، وهدي الأنبياء.

هكذا أكد القرآن الكريم ألا يوجد قلبان بجوف أحد ولا في صدره، إنما هو قلب ساكن يعمره الإيمان، أو قلب مضطرب بأدران النفاق متخبط حيران.

ومن سلِم فؤاده اعتدل عقله، واستقام منطقه، وأصاب لسانه، فيرى المُتبنى أجنبياً، ويرى زوجتَه هي الصاحبة الحَليلة، وأمَّه هي الوالدة الكريمة، جنته أو ناره، المحرمة عليه تأبيداً.

39-الخبثاء

ربما كان طبيعياً أن يحار المرء في الوقوف على كُنه وماهية فيروس كورونا، هل أصل هذا الوباء مُصنَّع معملياً، هل خلَّقه الإنسان لتحقيق أهداف ومطامع سياسية واقتصادية واستعمارية دنيئة، ثم ما لبث أن انقلب السحر على الساحر} وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى] {طه.[69 :

أم أن هذه الآفة رسالة من الله إلينا، ثم هل هي رسالة ابتلاء لا يزال بمكنتنا الاعتصام بالله منه واللياذ به والعوذ والغوث بجنابه تعالى.

أم أن هذا الفيروس بلاءٌ يحمل غضب السماء العارم، بعد طول حلم وصبر وعفو من الله على أهل الأرض جميعاً؟

في تصوري أننا بإزاء ثلاثة احتمالات :الاحتمال الأول، وربما كان أوهنَ الاحتمالات، أن هذا الفيروس مُسيَّس، صنعه عقل مجرم، وأطلقته يد آثمة، وفي هذه الحال فإننا نعيش مع إرادة كونية سمح الله بتفعيلها.

وإن كان الله سبحانه وتعالى يمقتها ولا يرضاها} إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُم] {الزمر[7 :، }ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] {الروم.[41 :

وتقودنا هذه الاحتمالية إلى الأمل الواسع العريض في تدارك الله لنا برحمته ولطفه وكرمه} مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا] {النساء[147 :، }وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ] {الشورى} .[30 :اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ] {الشورى.[19 :

أما الاحتمال الثاني، وهو الأقوى فيما أرى، فهو أن هذا الوباء العالمي ابتلاءٌ واختبارٌ من السماء لأهل الأرض حتى يقصر أهل الشر فيهم عن غيهم وضلالاتهم، ويُقبل أهل الخير ماضين سائرين في نورهم مستمسكين بقيم الحق والخُلق، والجَمال والخير} وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ] {الأعراف.[170 :

ويسوقنا هذا الاحتمال في الطمع الجامح في رحمة الله وفضله، وبرد كرمه وعفوه، وجميل لطفه وحلمه؛ لكن علينا أن نهرع إليه سبحانه ضارعين مبتهلين }فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] {الأنعام.[43 :

نعم ..علينا أن نتزلف إليه سبحانه متملقين عظمته، خائفين من بطشه وغضبه، باكين متباكين، خائفين راغبين} وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ] {الأنبياء.[76 :

وقال عن يونس عليه السلام} :فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ] {الأنبياء.[88 :

وقال عن زكريا عليه السلام} :فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ {]الأنبياء.[90 :

والاحتمال الثالث والأخير، فيما أحسب، وهو الأقسى على النفس والأصعب على أهل الأرض جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، مسلمهم ومجرمهم، طائعهم وفاسقهم، أن الله الحليم العليم قد أذن لهذا الفيروس أن يكون آية حاصدة لجرائم الإنسان وطغيان الأنام.

وفي هذه الحال سيكون الفيروس مأموراً وموجهاً، لا يمكن لبشر التصدي له، أو محاولة صرفه عن الإصابة والإماتة} قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ] {هود[43 :، }لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ] {النجم.[58 : ذلك أن الله خالق الأسباب، حين يريد إعجاز الإنسان، يجعل آياته تعمل بسبب وبغير سبب، بل يجعلها تعمل بعكس السبب، فهو سبحانه الذي أوقف طبيعة النار عن الإحراق، بل جعلها برداً وسلاماً على إبراهيم} قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ] {الأنبياء.[69 :

عزيزي القارئ، لن أطيل عليك، لكن تذكر أن الخبثاء الذين قد يكونون أسهموا في تخليق هذا الفيروس، أو في تصديره ونقله، أو في محاولة الأذى به لن ينجو أحد منهم من ضراوته، وستصيبهم لعنته، فبعد انطلاق الرصاصة ليس بمقدور من أطلقها إعادة توجيها، أو الانحراف والعدول بها عن وجهتها، أو التلطيف من أثرها وحدَّتها.

وقريب من هؤلاء الخبثاء كل من كان على شاكلتهم ممن يتاجرون بأزمات كورونا، أو من يُفيدون مادياً من المرض، أو يتلاعبون بآلام المرضى ومشاعر ذويهم.

بل من الخبثاء كل المحتكرين للأدوية والمغالين في أسعار السلع والأغذية، وأدوات مقاومة الفيروس بدءاً من القفازات والكِمَامات، ومروراً بالمطهرات، وانتهاءً بالتقصير في إعداد المشافي والمحاجر الطبية الحديثة العامّة.

أقول :فليتق الله رؤوس الناس من المسؤولين، كبروا أو صغروا، عليكم أيها السادة الملوك والرؤساء، والسلاطين والأمراء، وكل المسؤولين بالشفافية والصدق.

إن التعتيم والتعمية من شأن الجبناء، والتضليل والتهوين من دأب الضعفاء، والإرجاف والمزايدات والتهويل من صفات الخبثاء، وإلى الشعوب أقول :إن الضاحكين الساخرين من الوباء هم أيضاً من الخبثاء.

أقول أخيراً ..سواء أكان هذا الفيروس الوبيء من صنع البشر، أو هو ابتلاءٌ أو عذاب، وعقاب وبلاء، فلنقاومه بروح الانضباط والمسؤولية، وبالأسباب الصحية والطبية، وعدم الاستهزاء والسخرية، مع أهمية الأذكار الصباحية منها والمسائية، والدعوات الجهرية والسرية، الفردية والأُسرية.

وإلى أطقم الأطباء والممرضات والعاملين بالمجال الصحي والوقائي، أرجو أن تشملكم الآية الكريمة} :وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ] {العنكبوت. [69 :

رعى الله العالم بلطفه وعنايته، وحفظه بكنفه ورعايته، وردَّ الله الكون جميعه لما يُحب ويرضى ..آمين.

40-الوهم

يُعوِّل الأطباءُ كثيراً على أهمية ارتفاع نفسيات المرضى، لا سيما عند الأمراض الخطيرة، وقبل إجراء العمليات الجراحية الدقيقة، فيوصي الأطباء دوماً بوجوب أن يكون المريض منتعشاً معنوياً، منشرحَ الصدر، قارَّ العين والروح، هادئ البال والنفس.

ومن ناحية أخرى، تؤكد التجارب أن للوهم أو الإيهام دوراً كبيراً في القعود بهمَّة الفرد، أو الهبوط به في وِهَاد المرض، ودَرَك الإرهاق، واليأس والقلق.

وذلك في الوقت الذي يبقى للأمل والتفاؤل الأهمية القصوى في التشبث بحب الحياة، والتحفيز على الانطلاق والترقي والإنتاج والعمل؛ وهذا ما يدفع المسلم لغرس فسيلة بالأرض ما استطاع إلى ذلك سبيلاً حتى لو كانت الأرض قد شرعت تُحدِّث أخبارها.

روى أحمد(12902) ، والبخاري في" الأدب المفرد(479) "، وعبد بن حميد في" مسنده(1216) "، والبزار في" مسنده (7408) "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

)إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا(

وعلى مستوى الحروب، ثبت أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قد نصره الله في بعض المشاهد بالرعب يقذفه في قلوب الأعداء، ففي الصّحيحين عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي اللهُ عنهما أنّ النّبيَّ صلّى اللهُ عليه وآلِه وسلّم قال:

»أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي :نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً.«

أخرجه البخاريّ في» التّيمّم «باب التّيمّم) ١ /٧٨(، ومسلم في» المساجد ومواضع الصّلاة) «١ /٢٣٦ (رقم) ٥٢١(، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

بل عندما لاحظ بعض القادة العسكريين من المُلحدين ازورار جنودهم وجُبنهم وتخاذلهم عن القتال والمقاومة، وهلعهم من الموت في المعركة، اضطُر هؤلاء القادة الملحدون للعزف على قيثارة الجنة والخلود لمن أُصيب من جنودهم بجراحٍ أو أسرٍ وقتل.

ويُحكى أن طلاباً خافوا مغبَّة يوم امتحان معلمهم لهم، وكان هذا المعلم حازماً في قسوة، شديداً في جفوة، فاتفقوا على أن يوهموه بأنه مريض.

فكان كل طالب إذا رأى المعلم يسلم عليه يقول له" :شفاك الله وعافاك، سلامتك .."هكذا حتى أدخلوا على معلمهم وَهْمَ المرض؛ فسرعان ما شَعَر

المعلم بالإعياء والرَّهَق، واضطُر للانصراف مخافة مضاعفات المرض عليه والتعب.

وجسد الراحل" يوسف وهبي "في مسرحية" راسبوتين"، دور الراهب الروسي الداعر، الذي اشتُهر بولعه بالنساء والسُّكر والسَّرقة، مع بعض الخوارق التي طاوعته قدراً واحتال لها بالتنويم المغناطيسي؛ حتى أنّه ادّعى قدرته على شفاء الجروح بمُجرّد لمسها.

وحين نجا" راسبوتين "من محاولة اغتيال بسلاح أبيض على يدي إحدى ضحاياه من النساء، وقد أصابته في غير مقتل، جدد أحدهم محاولة التخلص منه فقدم لـ" راسبوتين "كعكعاً قد دسَّ له فيه السُّم بمادة" سيانيد البوتاسيوم"، بجانب كؤوس من الخمر.

طعِم الراهب الكعك واحتسى الخمر، وعندما فاجأ السامُّ" راسبوتين "بأنه سيصرعه الموت خلال لحظات، ما كان من القس" راسبوتين "إلا أن قاوم الموت وصارِع السُّم بأن أوهم نفسه بأنه شرب قدحاً من عصير تفاح أو مانجو!

وكان" راسبوتين "قد عزز تلك المقاومة للموت بجرعات ضئيلة من السُّم كان يتحساها على فترات متباعدة وذلك لتوقُّعه أن يسمه أحدهم يوماً ما انتقاماً منه لجرائمه الجنسية، التي كان يغرر بها ضحاياه من النساء من منطلق خبيث

هو أنه كي تتحقق توبتهن الصادقة لابد أن يبلغن آخر دركات الغواية والخطيئة والسقوط ليحصلن على ذروة التوبة النصوح!

هكذا قاوم" راسبوتين "آلام بطنه التي كادت تتقطَّع لها أحشاؤه وأمعاؤه، وهكذا استمر في مقاومته السُّم باحتساء الوهم الآمل حتى نجا" راسبوتين " من الموت بالسُّم، وإن لم ينجُ بعد ذلك من اغتيال برصاصٍ، وركْل ورفس، وإغراقٍ في النهر.

الآن ..منَّا من يرى أن ما يمر به الكون من جائحة كورونا إنما هو عقابٌ من السماء لتمادي خطايا أهل الأرض جميعاً.

وإن كنا نقر بأننا مذنبون خطاؤون إلا أنه ليس من الصواب أن نتألى على الله فنُعلن تأكيد غضبه علينا، أو نجزم بنزول سخطه إلينا، فليس لأحد أن يتكلم باسم الله اللهم إلا الرسل والأنبياء الكرام وقد ارتقوا.

وربما كان بعضٌ منَّا على قناعة بأن فيروس كورونا ابتلاءٌ، سرعان ما ينقشع مع سابغ فضل الله، وواسع رحمته، تلكم الرحمة التي وسعت كل شيء، وأحاطت بكل شيء، حتى إن من شُعبها أن ترفع الدوابُّ أرجلها عن صغارها خشية أن تصيبها بمكروه.

ففي صحيح الجامع عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

"جعل اللهُ الرحمةَ مائةَ جُزءٍ، فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرضِ جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزءِ يتراحمُ الخلقُ حتى ترفعَ الفرُس حافرَها عن ولدِها خشيةَ أن تُصيبَه."

وربما بقي بعضٌ أخير منا يرى آفة كورونا صنيعة بشر خبثاء ماكرين، لهم مآرب دنيوية مادية،} سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ] {الأنعام[124 :،} وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ] {إبراهيم[46 :،} وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ] {فاطر[10 :

لكن بقي لنا مع أزمة كورونا العالمية أن نُصغي لنصائح الأطباء المتخصصين، وأن نُبادر إلى احترام اللوائح والقوانين، وأن نتحلى بالأمل والتفاؤل برحمة ربنا الرحمن الرحيم.

وألا نقع فرائس أو ضحايا مبالغات إعلامية تخلع على قُدرة هذا الفيروس سطواً وبأساً غير محدودين، فيصرعنا الوهم والفزع ربما قبل أن يغشانا الفيروس أو يدنو منا المرض.

كما أنه ينبغي علينا أن نكف عن الشائعات بأن نوئدها في مهدها؛ حتى لا تصيبنا بيأس أو قنوط، فلربما كانت هذه الإصابات بكورونا والوَفَيَات المتناقلة لا ترجع لفتك فيروس كورونا بقدر ما تعود إلى الغُلَوَاء والتضخيم في قوته وأثره وبأسه.

إني لا أدعو إلى أن نستدبر واقعاً بئيساً يحياه الناس فنغمض أعيننا فَرَقاً، أو نغض الطرف عن حاضرنا تغافلاً أو كِبْراً، أو نسبح ضد التيار نَزَقاً وخَرَقاً ولَفْتاً، بل هي دعوة آملة تترقب تنفُّس الصبح، وانبلاج الفجر، عسى أن يكون قريباً إن شاء الله.

نبذة عن المؤلف

أحمد محمد عيسى عبد الرحمن

الدولة :

مصر _ القاهرة

المؤهلات :

* **الدبلوم الخاصة في التربية من معهد :**

)الدراسات والبحوث التربوية (. جامعة القاهرة.

* **الدبلوم العامة في التربية من معهد) :الدراسات والبحوث التربوية (. جامعة القاهرة.**

***تمهيدي ماجستير في النقد الأدبي والأدب المقارن من :**

)كلية دار العلوم (. جامعة القاهرة.

* **تمهيدي ماجستير في الشريعة الإسلامية من) :كلية دار العلوم (. جامعة القاهرة.**

* **دورة في تحقيق التراث من) :مركز الدراسات الإسلامية (. جامعة القاهرة.**

* **الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية من) :كلية دار العلوم (. جامعة القاهرة.**

الخبرات:

* مدير وحدة التدقيق اللغوي بموقع" مباشر
* العمل مدققاً لغويّاً بصحيفة" تواصل "الإلكترونية السعودية
* العمل محرراً ومدققاً لغويّاً بصحيفة" الوئام "الإلكترونية السعودية
* العمل مدققاً لغويّاً بموقع" الدرر الشامية "
* العمل مدققاً لغويّاً بصحيفة" سبق "الإلكترونية السعودية
* العمل باحثاً لغويّاً وشرعيّاً، ومحرراً) أول(، بموقعي :)نداء الإيمان، والخير الشامل.(

*العمل مدققاً لغويّاً بموقع" العربية "الإلكتروني، من خلال قناة الـ"MBC".

* مدير مجموعة بموقع خدمات مباشر.
* العمل محرراً ثم محرراً) أول(، ثم مراجعاً ثم مراجعاً) أول (بموقع خدمات مباشر.
* المشاركة في تدشين وتطوير موقع خدمات مباشر.
* العمل في المراجعة اللغوية من خلال وسطاء لـ :دار" المقطم"، و"كلمات عربية"، و."RDI"
* العمل باحثاً لغويّاً وشرعيّاً بموقع) :نداء الإيمان (
* العمل باحثاً لغويّاً وشرعيّاً بشركة صخر

* العمل في الفريق الفني لموسوعة) :مقاتل من الصحراء(
من خلال شركة صخر.

أعمال سابقة:

-قصة وخلق _قصص _ pdf _ دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني

الفهرست

المقدمة ٤

1-وقفة مع" ضد من؟ .."لـ أمل دنقل ٧

2-مقاربة" حوار على النيل .."لـ أمل دنقل..... ١٢

3-حول" زهور "أمل دنقل ٢١

4-بين يدي" عشاء "أمل دنقل ٢٤

5-مع" العينان الخضراوان .."لـ أمل دنقل ٢٨

6-قراءة في" قصيدة حمامة "لـ أمل دنقل ٣٣

7-نظرة تأمل في" صلاة "أمل دنقل ٣٨

8-خطاب غير تاريخي .."لأمل دنقل ٤٤

9-جبل ابن خفاجة .."إطلالة شاعرة..... ٥١

10-زهراء ابن زيدون ..إطلالة شاعرة ٦٠

11- نافذة على مجنون ليلى ٦٣

1-الشياكة في بلادي ٧١

2-المقاهي في بلادي ٧٤

3-الجمعة في بلادي ٧٦

4-الأفراح في بلادي ٧٩

5-اللحية في بلادي ٨٢

6-السلام في بلادي..... ٨٥

7-التثاؤب والعطاس..... ٨٩

8-مارد المراهقة ٩٢

9-الموبايل..... ٩٧

10-رحلة إلى حديقة الحيوان ١٠١

11-حماتي لم تمت ١٠٧

12-جزيرة القطط ١١٢

13-الوزير الإنسان ١١٤

14-النابلسي والأطرش ..صداقة حتى الموت ١١٧

15-لصوص ..لكن رحماء ١٢١

16-مراكز قوى لا سادات لها ١٢٦

١٧ التدخين ١٣١

18-طابونة الحاج استوكل ١٣٧

19-التفاضل والاختيار ١٤١

20-عنب فرط ..وكسر خيار ١٤٧

21-السرقات ..وقبضة الأمن..... ١٥٢

22-عفواً ..إلا القرآن الكريم ١٥٧

23-جوف وقلبان ..تفسير وبيان ١٦٣

24-من آداب المقارئ..... ١٦٨

25-من آداب الحفلات ١٧٢

26-صلاة الجماعة والصف الأول ١٧٦

27-شخصية الزعيم ١٨٠

28-المباني والمعاني ١٨٤

29-كلمة شرف..... ١٨٨

30-ثلاث قرص..... ١٩٢

31-ابن الوليد ومحمد صلاح..... ١٩٤

32-ماذا بعد در اللبن؟..... ١٩٥

33-مستعمرة الجذام ٢٠٠

34-أهل القرى والمدن ٢٠٤

35-التوك توك ٢٠٨

36-الكروان الباكي..... ٢١٢

37-لغز الموت ٢١٨

38-جوف وقلبان ..تفسير وبيان ٢٢٦

39-الخبثاء..... ٢٣١

40-الوهم ٢٣٦

نبذة عن المؤلف ٢٤٢